تصورات البحر الأبيض المتوسط

المتوسّط المصري

محمد عفيفي

إدوار الخراط



THALASSA

GIFTS 2006

Dr Michael Lange
Cairo

تصوّرات
البحر الأبيض المتوسط

المتوسّط المصري

محمد عفيفي

إدوار خراط

T H A L A S S A

تصورات البحر الأبيض المتوسط

برنامج أبحاث بإشراف البيت المتوسطي لعلوم الإنسان

منسق البرنامج : فرانسوا سيينو
سكرتيرة التحرير : جيزيل سايماندي
منسقة النسخة العربية : ماري تريز زهر

رعى البرنامج كل من :
الاتحاد الأوروبي
وزارة الخارجية الفرنسية
المؤسسة الأوروبية للثقافة
مؤسسة رينيه سايدو للعالم المتوسطي
منطقة بروفانس آلب كوت دازور
مقاطعة بوش دي رون

شكر خاص لمؤسسة الملك عبد العزيز في الدار البيضاء
وللجامعة اللبنانية في بيروت لاستقبالهما

الغلاف :
خارطة محمد الإدريسي وهو جغرافي عربي توفي سنة ١١٦٦ .

تم نشر هذه المجموعة أولا باللغة الفرنسية في
دار ميزونوف إي لاروز Maisonneuve & Larose
أما الترجمة إلى العربية فهي بالتعاون مع
مؤسسة كونراد أديناور وتحت إشرافها

Konrad
-Adenauer-
Stiftung

تصوّرات
البحر الأبيض المتوسط

بإشراف تييري فابر، روبير إلبير، غريغور مايرينغ

المتوسّط المصري

محمد عفيفي

إدوار خراط

معين التاريخ لأهل التأريخ

THALASSA

محمد عفيفي / إدوار خراط

المتوسط المصري – بيروت : منشورات تالاسا ٢٠٠٣

Printed in Lebanon

DYNAMIC GRAPHIC
ISBN: 9953-422-39-7

محمد عفيفي

الجذور التاريخية
للفكرة «المتوسطية» في مصر

في محاولة لتأكيد البعد المتوسطي في مصر، صرَّح مصدر مسؤول في الخارجية المصرية عام ١٩٩٥:

«أن مصر «قبل الغزو العربي عام ٦٤١ كانت دولة خالصة الهوية المتوسطية، ولكن بعد الفتح العربي أصبحت الهوية المصرية عربية إسلامية، إلا أن الهوية المتوسطية بدأت تعود مرة أخرى إلى الفكر المصري». لعلنا نذكر كتاب طه حسين «مستقبل الثقافة في مصر»، ثم بعد ذلك توفيق الحكيم في «عودة الوعي»، نجيب محفوظ وأيضا حسين فوزي، وشرحها جمال حمدان في كتاب «نحن وأبعادنا الأربعة» الذي دعا فيه إلى ضرورة أن تعمق مصر هويتها المتوسطية.» [١]

فما هي جذور فكرة «المتوسطية» في مصر المعاصرة، هذه الجذور التي دفعت هذا المسؤول إلى الاستفادة من «استدعاء التاريخ» بخدمة التوجه المتوسطي في مصر، سنحاول إلقاء الضوء على هذا الشأن.

والنص الأول الذي لدينا هو الكتاب الشهير لرفاعة رافع الطهطاوي «تخليص الإبريز في تلخيص باريز»، وهي رحلته الشهيرة إلى فرنسا ويكتسب هذا النص أهميته من مكانة الطهطاوي في الفكر المصري بل الفكر العربي الحديث، وأيضاً للاهتمامات الجغرافية له. فعندما يعبر الطهطاوي البحر المتوسط إلى فرنسا يصف هذا البحر قائلاً في ركوب البحر المالح المتصل بثغر إسكندرية،

«أعلم أن هذا البحر يسمى في كتب الجغرافيا العربية بحر الروم، لأنه يصل إحدى جهاته ببلاد الروم، ويسمى أيضاً فيها بحر الشام، لمجاورته أيضاً بلاد الشام، ويسمى أيضاً عند الإفرنج البحر المتوسط أو الجواني. وإنما سمي بذلك لأنه داخل الأراضي الناشفة بخلاف البحر المحيط فإنه محيط بجميع الأراضي... ويسمى هذا البحر الجواني باللسان التركي بحر صفيد والبحر الأبيض لمقابلته ببحر بنطش أو البحر الأسود، وهناك بحر آخر يسمى بالبحر الأبيض، وهو في بلاد الموسقو وهو المراد بالبحر في إطلاقات علماء الجغرافيا.» [٢]

والتحليل الذي نقدمه لهذا النص يرتكز على تعدد الرؤى عن البحر المتوسط لدى الطهطاوي. فأول ما يتبادر إلى الذهن عند تعريف المتوسط أنه يعرف في كتب الجرافيا العربية بـ «بحر الروم» وهذا المصطلح في غاية الأهمية لأنه يستدعي تاريخاً طويلاً من الصراع بين العرب والروم. فالطهطاوي بحكم ثقافته العربية الإسلامية ينظر إلى البحر المتوسط أولا على أنه «بحر الروم» بحر المواجهات والصراع الحضاري الإسلامي «الغربي»[٣]. لكن شرق المتوسط أيضاً كان بمثابة رابطة قوية بين مصر والشام. والتاريخ يحدثنا عن ارتباط الشام بمصر قرون عديدة من فترة السيادة الإسلامية. من هنا كان «المتوسط» هو أيضاً بحر الشام عند الطهطاوي. ونتيجة للرحلة العلمية للطهطاوي إلى الغرب نجده يقدم تعريف «الإفرنج» للبحر «المتوسط» لكن الطهطاوي لا يستطيع أن ينسى «الدولة العثمانية» سواء بحكم أن مصر ما تزال ولاية عثمانية، أو بتواجد اللسان التركي في مصر، أو حتى بحكم الانتماء الإسلامي. من هنا يأتي التعريف التركي للبحر «الأبيض» ودون الإغراق في التفاصيل، نرى أن هذه التعددية في الرؤى تتفق في الحقيقة مع أحوال مصر وتطورها بل والثقافة الشرقية في القرن التاسع عشر.

لكن التأصيل الحقيقي لفكرة المتوسطية يأتي متأخراً عشرات السنين بعد نص الطهطاوي، لكنه أكثر النصوص شهرة فيما يتعلق بالفكرة المتوسطية في مصر، وهو كتاب طه حسين «مستقبل الثقافة في مصر» الصادر عام ١٩٣٨، وكعادة معظم نصوص طه حسين جاء هذا النص مثيرا للجدل[٤]. ولعل أهم الفقرات تعبيرا عن فكرة المتوسطية لدى طه حسين هي :

> «أن العقل المصري منذ عصوره الأولى عقل إن تأثر بشيء فإنما يتأثر بالبحر الأبيض المتوسط، وإن تبادل المنافع على اختلافها فإنما يتبادلها مع شعوب البحر الأبيض المتوسط.»

كما يؤكد هذه الفكرة قائلاً :

«إذا لم يكن بد من أن نلتمس أسرة للعقل المصري ونقره فيها، فهي أسرة الشعوب التي عاشت حول بحر الروم.»

ويوضح طه حسين فكرته حول «المتوسطية» كوحدة حضارية

متجانسة وليست وحدة سياسية قائلاً :

«ليس بين الشعوب التي نشأت حول بحر الروم وتأثرت به فرق عقلي أو ثقافي ما، وإنما هي ظروف السياسة والاقتصاد التي تفرّق بين أهل هذا الساحل وأهل ذلك الساحل، وأيضا ظروف السياسة والاقتصاد، لهذه الشعوب تكون مواتية لهذا الفريق ومعادية لذاك.» [٥]

وقبل أن نتطرق إلى دراسة تفصيلية للفكرة المتوسطية كما طرحها طه حسين في كتابه، ومتابعة ردود الأفعال المختلفة حول هذا الكتاب، فإننا نرى أنه من الضروري ومن أجل فهم أفضل لكل ذلك إلقاء نظرة سريعة حول الأصول العالمية للفكرة المتوسطية لا سيما في الثلاثينات من هذا القرن وأيضاً الرجوع إلى مصر لدراسة المناخ الذي أفرز الكتاب السابق.

فمن الناحية الدولية عاد البحر المتوسط بشدة إلى مسرح السياسة الدولية مع وصول «الدوتشي» موسيليني إلى الحكم في إيطاليا، وعاد الحديث عن إحياء الحضارة الرومانية في حوض البحر المتوسط «بحرنا»[٦]، ورصدت الصحافة المصرية هذه التطورات العالمية حول البحر المتوسط باهتمام شديد[٧].

كما ظهرت في فرنسا في سنوات الثلاثينات حركة أدبية تدعو إلى «المتوسطية» وكانت الفكرة المتوسطية لديهم تمتد من أسبانيا حتى مصر ولبنان، وعبَّرت عن هذه الحركة مجلة Cahiers du Sud، وظهرت لها أصداء في الجزائر وتونس[٨].

وفي مصر ينظر البعض إلى فترة الثلاثينات على أنها فترة ذات طابع خاص. إذ وصفها البعض بأنها :

«مرحلة غريبة وبلا هدف في تاريخ مصر فعندما تنظر إليها في أثناء الأربعينات، فإنما تنظر إليها على أساس أنها السنوات العقيمة. فكل من السياسة والأدب قد ضلّ طريقه، ولم يكن يتوقع أحداً ذلك.» [٩]

ورأى فيها البعض الآخر أن «الحضارة الليبرالية» أصبح من الصعوبة بمكان أن تستمر في ازدهارها السابق[١٠] ووصفها البعض بأنها «فترة تراجع الليبراليين»[١١]. وعلى العكس من ذلك يرى البعض الآخر أن هذه السنوات تمثل – على المستوى العربي

والمصري معاً – «الفترة التكوينية الجنينية التي أخصبت في رحمها بذور التحولات والاتجاهات الجديدة التي ستسود فترة ما بعد الحرب»[١٢] معبِّراً عن ميلاد التوفيقية الجديدة في الفكر العربي.

والحق أن هذه الفترة شهدت تحولات هامة في مجرى السياسة والفكر في مصر. حيث شهدت سلسلة الانقلابات الدستورية الشهيرة، وفشل المفاوضات المصرية البريطانية في تنظيم العلاقة بين مصر وبريطانيا، واهتزت الفكرة الليبرالية في مصر، والأخذ عن الحضارة الأوروبية، لا سيما مع النجاح المتزايد للفاشية في إيطاليا، وظهور جماعة مصر الفتاة ذات الميول الفاشية في مصر عام ١٩٣٣.

وشهدت الفترة ذاتها محاولة تقديم «استجابة» أمام التحدي «الغربي»، وأخذت هذه الاستجابة الشكل «الإسلامي» أو «الشرقي» أو «العربي» فمن ناحية ظهرت حركة الإخوان المسلمين في الإسماعيلية عام ١٩٢٨، ولم يشتد عودها إلا بعد انتقالها إلى القاهرة عام ١٩٣٣ وصاحب ذلك بعض أحداث التبشير من جانب بعض المبشِّرين في أوساط المسلمين في مصر. فضلاً عن كتابات معادية للإسلام من جانب بعض المستشرقين. ودفع ذلك إلى موجة جديدة في أوساط معظم «المثقفين الليبراليين» إلى الكتابة في تاريخ الإسلام دفاعاً عن اتهامات المستشرقين. وتخلى هيكل – في نظر البعض – عن ليبراليته السابقة بإصداره كتابه «حياة محمد»، الذي قال فيه :

> «برغم ما وضعت الحروب الصليبية أوزارها منذ مئات السنين فقد ظل تعصب الكنيسة المسيحية ضد محمد على أشده إلى عصور قريبة، ولعله كذلك لا يزال... ولم يقف الأمر عند الكنيسة، بل تعداها إلى كتَّاب وفلاسفة في أوروبا وفي أمريكا لم تكن تصلهم بالكنيسة صلة تذكر.» [١٣]

كما شهدت بدايات الفترة ذروة حركة «الرابطة الشرقية» في مصر حيث بدأت هذه الحركة متأثرة بالفكرة الإسلامية، لكن دائرتها اتسعت لتضم «شعوب الشرق» حتى الشرق الأقصى وبدا الأمر في صورة «الشرق» في مواجهة «الغرب»[١٤].

وشهدت الفترة ذاتها ما أطلق عليه البعض «تعريب مصر

سياسياً»[١٥] وتناطحت الهويات بشدة في مصر آنذاك. ففي نفس عام صدور كتاب «مستقبل الثقافة في مصر» كان رأى أحمد لطفي السيد أبو القومية المصرية في الجامعة العربية «أن السعي لتأليف تحالف من هذا النوع وهم من الأوهام»[١٦] وفي نفس العام أيضاً أكد الشيخ المراغي شيخ الأزهر أن الدين يعادي الفكرة العنصرية، ودعا العلماء والمسلمين إلى تحقيق الوحدة الإسلامية وألا يلقوا بالاً إلى الوحدة العربية[١٧]. وقبل ذلك بقليل كتب محمد عبد الله عنان عن القومية المصرية قائلاً :

> «فلما جاء الفتح الإسلامي كانت مصر ولاية رومانية، ولكنها كانت كتلة قومية كبيرة، فورثت من غزاتها الجدد الإسلام والعربية، ولكنها حافظت على خواصها القومية، ونشأت في ظل الإسلام أمة مصرية مسلمة، عربية لا بخواصها الجنسية أو القومية، ولكن فقط باللغة التي تنطق بها.» [١٨]

هكذا شهدت الفترة اهتزاز مبدأ الأخذ عن الحضارة الغربية، وصراع الهوية في مصر، بعد ما ظن البعض أن ثورة ١٩١٩ كانت نجاحاً أبدياً للفكرة الليبرالية، والقومية المصرية من هنا كانت دعوة طه حسين إلى الفكرة المتوسطية، محاولة مستميتة لـ «عودة الروح» إلى الليبرالية والأخذ عن الحضارة الغربية، وأيضاً لسيادة مفهوم القومية المصرية. ويتضح ذلك جلياً من الكلمات الأولى لطه حسين في كتابه :

> «الموضوع الذي أريد أن أدير فيه هذا الحديث هو مستقبل الثقافة في مصر التي ردت إليها الحرية بإحياء الدستور، وأعيدت إليها الكرامة بتحقيق الاستقلال.» [١٩]

إذ ينتهز طه حسين مناسبة إبرام معاهدة ١٩٣٦ بين مصر وبريطانيا في إعادة الثقة في الحضارة الغربية، التي لا تأتي ممن يحتل، وأن مصر المستقلة قادرة على النهل من هذه الحضارة على قدم المساواة.

والحق أن المتوسطية كانت «مشروعاً بديلاً» لدى بعض الشعوب الشرقية التي كانت تعاني في فترة الثلاثينات من أزمة في العلاقة مع الغرب «سياسياً» مع رغبة أكيدة من مثقفيها الليبراليين في استمرار الأخذ من «الحضارة العربية». فمصر كانت

تعاني من أزمة فشل المفاوضات المصرية البريطانية وثقافة «المحتل» ولبنان كان يعاني من الانتداب الفرنسي بينما يسعى مثقفوه الليبراليون إلى ربطه بالغرب حضارياً لا سياسياً. وتركيا أخذت طريق العلمانية على يد كمال أتاتورك بينما لا يقبلها الغرب، وتبقى «الذكريات السياسية الأليمة» راسخة في الأذهان. من هنا لم يكن غريباً أن تتبنى بعض الاتجاهات الليبرالية في هذه البلدان الفكرة المتوسطية كمشروع بديل في محاولة للالتفاف حول أزمة الليبرالية في هذه البلدان، وإعادة الثقة في الأخذ بالحضارة الغربية، فضلاً عن صراع الهويات بها، فكما استغل طه حسين «الفرعونية» في ربط مصر بعالم البحر المتوسط أو في الحقيقة بالحضارة الغربية، كانت فكرة «الأناضولية» في تركيا تأكيداً على المشاركة في أصول الحضارة اليونانية القديمة مثلهم مثل اليونان. وفي لبنان كانت «الفينيقية» نفس الشيء لربط لبنان بعالم البحر المتوسط أو بالأحرى الحضارة الغربية. وكما أصدر طه حسين بعد ذلك مجلة «الكاتب المصري» ذات الرمز الفرعوني، كانت مجلة فينيقيا في لبنان[٢٠].

وفي رأينا أن طه حسين لم يقدّم في كتابه تأصيلاً حقيقياً للفكرة المتوسطية في مصر. ولا يعود ذلك إلى نقص في قدرات طه حسين، ولكن إلى ذكاء وبصيرة منه. فهو يدرك تماماً أن المتوسطية لديه – ما هي إلا مشروع بديل لإحياء الليبرالية في مصر، ونجد صدى ذلك حتى لدى منتقديه، فنادراً ما استخدم هؤلاء فكرة البحر المتوسط أو الانتماء إليه، وإنما استخدموا بوضوح المفردات التقليدية للفكر المصري آنذاك الأخذ عن الحضارة الغربية «الفرعونية» «العربية» «الإسلامية» فخلال مسح لنا لأهم مجلتين ثقافيتين – آنذاك – وهما «الرسالة» لأحمد حسن الزيات و«الثقافة» لأحمد أمين لم نجد فهماً وبالتالي نقداً للفكرة المتوسطية.

فأهم منتقدي طه حسين من المصريين هو الدكتور زكي مبارك يأخذ على طه حسين قوله أن عقلية مصر عقلية «يونانية» ويأخذ زكي مبارك بالمنهج التوفيقي ويخاطب طه حسين بسخريته المعهودة :

«عميد كلية الآداب – يقصد طه حسين – يثق بأن في مصر

شمائل من العقلية اليونانية التي تلقت الدروس عن مصر الفرعونية، ولكنه مع ذلك يؤمن بأن لمصر عقلية إسلامية.» [٢١]

بينما يأخذ أحمد أمين – من وجهة نظر فلسفية – على طه حسين رفضه لفكرة مادية الحضارة الغربية، ويلح أمين على روحانية الشرق «أن في الغرب روحانية لكنها ليست كالشرق»[٢٢]. كما اعترض سيد قطب – في مقتبل حياته – على فكرة طه حسين في تقسيم العالم إلى قسمين غربي وشرقي. وتساءل فما بال اليابان وهي تأخذ بالحضارة الأوروبية اليوم في قوة وسرعة ؟ أهذا دليل على أن عقلية اليابان عقلية غربية وهي التي يعتبرها طه حسين «نموذجاً للعقل الشرقي»[٢٣]؟

وفي الحقيقة حظي الجانب التربوي في الكتاب اهتمام شديد من جانب المفكرين المصريين مؤيدين ومعارضين[٢٤]، نظراً لمكانة طه حسين في ميدان الفكر والتعليم، وأيضاً لوضوح هذه الأفكار، بالمقارنة بالتباس فكرة المتوسطية بفكرة «التغريب».

وجاءت ردود الأفعال العنيفة على طه حسين من جانب القوميين العرب[٢٥]، الذين نظروا آنذاك إلى مصر نظرة خاصة، فلدى بعضهم هي حجر الزاوية للقومية العربية[٢٦]، ولدى البعض الآخر هي بفرعونيتها حجر عثرة في طريق القومية العربية. ولعل أعلى الأصوات في هذا المجال وأشهرها على الإطلاق ساطع الحصري اللاجئ العربي إلى مصر والمنظر الشهير للقومية العربية. حيث خاض الحصري معركة شهيرة رافضاً فكرة انتماء مصر إلى «العقل الأوروبي» مستنداً إلى نظرية «القومية» واعتمادها على اللغة، ودون الدخول في تفاصيل كتابات الحصري في هذا الشأن التي تدخل في إطار دراسة تطور فكرة القومية العربية، أكثر من تتبع مسألة الجذور التاريخية للمتوسطية في مصر، كان الحصري مؤيداً للمسألة القومية متمثلة في القومية العربية، رافضاً لفكرة «الحضارة العالمية» حضارة البحر المتوسط أو في حقيقة الأمر الارتباط الحضاري بأوروبا[٢٧].

وعلى العكس من ساطع الحصري الذي حاول التوفيق بين عروبة مصر وقوميتها المصرية، رأى بعض غلاة العروبة في كتاب «مستقبل الثقافة في مصر» فرصة للنيل من قيمة وأهمية مصر

بالنسبة للعروبة. إذ نشرت مجلة «المكشوف» البيروتية مقالاً لكاتب لبناني من غلاة العروبة إن سخر فيه من طه حسين ومن دور مصر في الثقافة العربية قائلاً :

«تأمل مصر التي يريد بعضهم أن يجعلها زعيمة العروبة ينادي أكبر أديب فيها بفرعونيتها، ويقول إن الإسلام لم يغير شيئاً من عقلية أبنائها على الرغم من مرور ثلاثة عشر قرناً على قيامه في وادي النيل.»

حتى أنه وصف الثقافة العربية في مصر بأنها لقيطة[٢٨].

وقد أثار ذلك الهجوم كبار مفكري مصر مثل توفيق الحكيم الذي استنكر بشدة الخلاف حول العروبة والفرعونية، وسخر من قيمة أعداء مصر. بل أن زكي مبارك الذي انتقد من قبل كتاب مستقبل الثقافة ما لبث أن هاجم بشدة مجلة «المكشوف» وأعلن عن «مصريته» قائلاً :

«أتحداكم أن تثبتوا أن لبنان نبغ فيه أديب واحد ولم يكن مصدر نبوغه الاتصال بالثقافة المصرية.»

كما دافع عن طه حسين قائلاً :

«قد يتطوع أحدكم فيبعث ما كنت قلته في طه حسين وأحمد أمين. وأنا أعرف أني قلت في هذين الرجلين ما قلت باسم النقد الأدبي. ولكني مع ذلك أعرف أنهما من أقطاب هذا العصر، وليس لهما نظير في لبنان أو غير لبنان.» [٢٩]

وهكذا لم تحظَ الفكرة المتوسطية بمناقشة جدية من جّانب منتقدي طه حسين. فكما قلنا كانت فكرة المتوسطية عند طه حسين «مشروع بديل» لأجل إحياء الفكرة الليبرالية في مصر، وعودة إلى الأخذ بالحضارة الغربية ولكن تحت «يافطة جديدة». كما أراد طه حسين بها أيضاً مواجهة الهويات الصاعدة في مصر مثل العروبة، أو الهوية التقليدية «الإسلامية»، أو حتى الرابطة الشرقية التي كانت قد دخلت في طور الاحتضار. وفهم منتقدوه ذلك ومن هنا كان تصويب النقد على مسألة الأخذ بالحضارة الغربية أو «الفرعونية الضيقة». وكما لاحظنا جاء النقد الحاد من جانب أنصار الفكرة العربية، الهوية الصاعدة الواعدة، وكان استقبال الكتاب هادئاً متعقلاً في مصر، حاداً عاطفياً في خارج مصر لا

سيما في البلاد التي كانت العروبة فيها الحل الوحيد إزاء التعددية الإثنية والدينية الشديدة بها.

ومن ناحية أخرى رأى البعض وجود جذور للفكرة المتوسطية لدى سلامة موسى[٣٠]. ولكن هؤلاء خلطوا في الحقيقة بين دعوة سلامة موسى إلى «الفرعونية» أو «المصرية» وأن تصبح مصر قطعة من أوروبا، وبين الفكرة المتوسطية. إذ يرفض سلامة موسى مقولة أن مصر من الشرق.

«أننا نطلق على أنفسنا صفة الشرق بلا حق لأننا غير شرقيين. ثم نتعصب لهذا الشرق ونقيم في أذهاننا منه، غرضاً نكره به الغربيين والحضارة الغربية.»

كما يتحدث عن الانتماء «للثقافة العربية» قائلاً :

«ليس علينا للعرب أي ولاء. وإدمان الدرس لثقافتهم مضيعة للشباب وبعثرة لقواهم فيجب أن نعودهم الكتابة بالأسلوب المصري الحديث لا بالأسلوب العربي القديم... يجب أن ننظر إلى لغة النابغة أو المتنبي كما ننظر إلى اللغة الروسية أو الإيطالية لأنها ليست لغتنا، ولسنا نستفيد بدرسها.»

ولعل أقرب العبارات إلى المتوسطية :

«إذا كنا نحب السير مع أوروبا فليس ذلك لأننا والأوروبيين من دم وأصل واحد فقط، بل لأن ثقافتنا تتصل بثقافتهم من عهد مدرسة الإسكندرية، ومجمع أثينا، وأيضاً لأن حضارتنا هي حضارة العالم الحديث كله.» [٣١]

في الواقع، فإن فكرة المتوسطية لم تكن قد اختمرت عند سلامه موسى إذ كان يكتب في فترة العشرينات، قبل اختمار الفكرة في أوروبا ذاتها. كما كان هم موسى الأول «الهوية المصرية» و«الحضارة الغربية» ونقد «الرابطة الشرقية» أو «بذور الهوية العربية» في مصر.

وعلى العكس من ذلك، كانت صورة البحر المتوسط من الناحية السياسية والاستراتيجية أكثر وضوحاً لدى المثقف المصري. يتضح ذلك من استعراض المجلات حتى «الثقافية» قبيل الحرب العالمية الثانية وأثناءها، وحتى بعدها، إذ نشرت مجلة «الثقافة»

مقالاً[٣٢] تحت عنوان «مسألة البحر المتوسط» تساءلت فيه هل يصبح البحر المتوسط مبعث الخطر على سلام العالم. وذكرت «الثقافة» الدوافع التي أدت إلى طرح هذا السؤال، مثل ظهور إيطاليا بشدة في البحر المتوسط، مشكلة الحرب الحبشية، المواصلات الدولية وسيطرة إنجلترا على جبل طارق وقناة السويس، وتنهي «الثقافة» حديثها بما ذكره «الدوتشي» موسوليني عن أهمية البحر المتوسط، وأنه بمثابة المنطقة الحيوية بالنسبة لإيطاليا.

ويعد الحرب تطرقت مجلة «الكاتب المصري» التي أنشأها طه حسين نفسه إلى ذات المسألة، حيث ذكرت :

«لم يبق شك في ذهن أحد قبيل الحرب الأخيرة وفي أثنائها أن السيادة في البحر المتوسط ستقرر مصير الحرب في النهاية، وأن النصر سيكون حليف الدول التي ستسود هذا البحر براً وبحراً وجوا.» [٣٣]

ومن ناحية أخرى عاد البعض على استحياء للحديث عن الدور الثقافي القديم لمصر حيث رأى الجغرافي الشهير سليمان حزين أن عبادة إيزيس التي انتشرت في حوض البحر المتوسط، قد أثرت ولو بطريق غير مباشر في قصة «العذراء» و«السيد المسيح». كما ينوه بفضل مصر في انتشار نظام الرهبنة المسيحية منها إلى بلاد البحر المتوسط وغرب أوروبا[٣٤].

وتعتبر محاولة حسين مؤنس في كتابه مصر ورسالتها أول محاولة جدية لتأصيل فكرة «المتوسطية» من وجهة نظر تاريخية، والأمر ليس بالغريب على حسين مؤنس، فهو من الداعين إلى الأخذ بالحضارة الغربية في مصر، من هنا تأتي المتوسطية استمراراً للعلاقة الحضارية بين الشرق والغرب، ولكن على قدم المساواة، لا سيما مع استقلال دول الشرق، والبحث عن طريق جديد لها. كما ينبغي أن لا ننسى أن حسين مؤنس من أهم المتخصصين في تاريخ الأندلس، التي تقدم في الحقيقة خير مثال على المتوسطية بأحلامها وآلامها.

وسيراً على درب طه حسين يبدأ مؤنس حديثه عن مصر و«البحر الأبيض» بالعبارة التالية :

«خطر ببالي أن هذا السؤال قد يثير في ذهن القارئ سؤالاً

أساسياً في دراستنا هذه : أنحن من الشرق أم من الغرب.» (٣٥)

ويعد استعراض طويل لتاريخ مصر يصل مؤنس إلى نفس النتيجة التي توصل إليها طه حسين مع بعض التغيرات الجديدة التي أفضت إليها، الفترة الزمنية التي يكتب فيها مؤنس كتابه(٣٦) يرى مؤنس :

«وقولنا أننا شرقيون إنما هو موقف سياسي ساقتنا إليه ظروف التاريخ ووضعتنا فيه أحوال السياسة العالمية الراهنة، فنحن شرقيون لأننا جزء من أمة العرب، وأمة العرب شرقية في أصولها، ونحن شرقيون لأن غالبية أمم الشرق في مثل ظروفنا.» (٣٧)

وهكذا يرى مؤنس أن مسألة «الشرقية» هي «موقف سياسي» أملته الظروف. وبالتالي يرفض «الشرقية» كثقافة وكتوجه عام.

«إذا كنا قد ولدنا أفريقيين فقد عشنا بحريين. وما دام الأمر كذلك، فلنا في هذا البحر رسالة هي التي يكتمل بها وجودنا، ويستقيم كياننا، وميزان حياتنا.» (٣٨)

ويرى مؤنس أن مصر حتى الفتح العربي كانت مفتوحة على عالم المتوسط، وما انقطع ذلك إلا بمجيء الحكام الجدد من الشرق.

«إن حكام مصر الإسلامية – من الفتح العربي إلى أوائل القرن التاسع عشر – كانوا أسيويين... والسبب الرئيسي في ضعف الأثر الذي تركه أولئك الحكام في مصر أنهم أرادوا توجيه سياسة مصر وحياتها وجهة أسيوية... وما انتعشت مصر من جديد إلا عندما عادت إلى نشاطها الإفريقي، وانفتح أمامها باب البحر المتوسط من جديد في أوائل القرن التاسع عشر.» (٣٩)

ويصرف النظر عن بعض التعميمات لدى مؤنس، وما يمكن أن يوجه إلى أطروحاته من نقد، فإنه هنا يعبر عن التيار الفكري السائد قبل ثورة ١٩٥٢، ولا يتفق ذلك مع أيديولوجية الثورة الجديدة. إذ قوبلت الفكرة المتوسطية باستهجان شديد من قبل ثورة يوليو ومفكريها. فبداية استبعد كتاب «فلسفة الثورة» لجمال عبد الناصر «المتوسطية» من دائرة اهتمامه. حيث عرض الكتاب لنظرية «الدوائر الثلاث»(٤٠) التي تبنتها الثورة، وهي الدوائر العربية، الإفريقية، وأخيراً الإسلامية.

وبطبيعة الحال لم يكن منطقياً أن تتبنى ثورة يوليو فكرة «المتوسطية» لعديد من الأسباب. لعل أهمها ظروف الحرب الباردة، وانقسام العالم إلى كتلتين، ظهور مجموعة دول عدم الانحياز، سياسة الأحلاف العسكرية في منطقة الشرق الأوسط، الوجود البريطاني في قناة السويس، العدوان الثلاثي في عام ١٩٥٦، مناصرة الثورة للحركات التحريرية في أفريقيا وآسيا، مشكلة إسرائيل. وفضلاً عن هذا وذاك فإن «الاشتراكية» – بعد ذلك – كأيديولوجية للثورة، و«العربية» كهوية لها، لا تتفقان مع الفكرة المتوسطية.

ويعتبر جمال حمدان في كتابه الشهير «شخصية مصر» من أهم مفكري العهد الناصري تعرضاً لفكرة المتوسطية بالدراسة والنقد. فبداية لا ينفي حمدان وجود «البعد المتوسطي» ضمن الأبعاد الأربعة التي تلعب دوراً في توجيه مصر. والأبعاد الأربعة هي الأسيوي، الإفريقي على مستوى القارات النيلي المتوسطي على المستوى الإقليمي[٤١].

ومع اعتراف حمدان بتواجد البعد المتوسطي إلا أنه يضعه تحت الدراسة والنقد قائلاً :

> «غير أن السؤال هو إلى أي حد، وكيف يستقر البعد المتوسطي في وجودنا.»

وفي إجابته على هذا السؤال يرفض حمدان فكرة المتوسطية بالشكل الذي طرح عند سابقيه، ويرى في هذا الاتجاه «رجعة تاريخية» إلى نظرية سادت وروج لها كثيرون في الغرب. بل ويرى أن هذه النظرية أصبحت الآن وحتى في الغرب نظرية «بالية»[٤٢].

وبعد استعراض طويل لتأثير البحر المتوسط في مصر، وتأثيره بها في الجغرافيا والتاريخ ينتهي حمدان إلى النتيجة التالية :

> «بعدنا المتوسطي حضاري أكثر منه طبيعياً، واقتصادي أكثر منه بشريا. وهو في النهاية، وعلى خطورته وأهميته بعد تكميلي لا يرقى بالقطع إلى مستوى البعد الأسيوي أو العربي الذي هو أسبق وأثبت.»

بل ويقلل حمدان من أهمية الدور الذي يلعبه البحر المتوسط في مصر مقارنة بمعظم بلاد حوض البحر، بما فيها بلاد الشام أو

المغرب[٤٣].

ها نحن أمام رؤية جديدة تعبِّر خير تعبير عن أيديولوجية ثورة يوليو، لا تنكر وجود البعد المتوسطي ولكن تقلل من أهميته، وتضعه ربما في حجمه الطبيعي. وبينما رفض طه حسين «الشرقية» ورفض حسين مؤنس «الأسيوية» وسلطوا الأضواء على «المتوسطية» ألحّ حمدان على «الأسيوية» أو «العروبة»[٤٤]. وكان ذلك تعبيراً عن تغير الهويات بتغير الأجيال، أو وفقاً لطبيعة الاتجاهات الفكرية والسياسية كما لاحظنا حتى في العصر الليبرالي.

الحالة الحاضرة

عادت الفكرة المتوسطية إلى دائرة الضوء من جديد في مصر في فترة التسعينات ولكن في سياق مختلف تماماً عن الجذور التاريخية للفكرة في مصر، فلأول مرة في تاريخ مصر يتم طرح الفكرة بمبادرة من الدولة، وليس من خلال بعض المفكرين كما كان يحدث من قبل. وربما ترجع مبادرة الدولة إلى السياسة «البراجماتية» الجديدة التي تتبعها في مجال السياسة الخارجية، وهي سياسة واقعية إلى حد كبير. وستأخذ هذه المبادرة شكل الدعوة لمنتدى دول البحر المتوسط، أو الشراكة الأوروبية المتوسطية.

والدافع الأكبر وراء تبني الدولة هذه الفكرة محاولة الاستفادة الاقتصادية من الدول الأوروبية، لا سيما في ظل المتغيرات العالمية الاقتصادية، ومن ناحية أخرى ازدادت أهمية الشراكة المتوسطية لدى مصر بعد تعثر المفاوضات العربية – الاسرائيلية، ورغبة مصر في إحباط مشروع «الشرق أوسطية»، هذا المشروع الذي تراه مصر على أنه مشروع أمريكي يستهدف دمج إسرائيل في المنطقة. كما أن المتوسطية تفتح دائرة جديدة لمصر لا سيما بعد تقلص دور حركة عدم الانحياز، وإجهاض المشروع العربي، وضعف الدائرة الإسلامية، لا سيما بعد الثورة الإيرانية، فضلاً عن تغير الوضع المتميز السابق لمصر في أفريقيا.

وعارضت معظم أحزاب المعارضة العودة الجديدة «للفكرة المتوسطية في شكلها الجديد، الشراكة» إذ عارضها الحزب

الناصري[٤٥] مؤكداً على الهوية العربية، كما عارضها كل من حزب العمل[٤٦] وحزب الأحرار[٤٧] ذوي الاتجاهات الإسلامية. وتخوف بعض المعتدلين من الكتّاب من فكرة الشراكة ورأوا فيها أن الهدف منها بالنسبة للشمال الأمن ومكافحة الإرهاب وتنظيم الهجرة إلى الشمال، بينما نظر إليها الجنوب على أنها منفعة اقتصادية، ودائرة جديدة تفتح له. حتى رأى البعض أنها صورة جديدة لسيطرة الشمال على الجنوب[٤٨]. على أية حال «الفكرة المتوسطية» دائماً في مصر «مشروع بديل» يظهر في أوقات الأزمة لخدمة أهداف مرحلية فقط.

الحواشي

(١) الجمهورية : ١٩٩٥/٤/٦،

(٢) رفاعة رافع الطهطاوي، تخليص الإبريز في تلخيص باريز، بيروت د.ت. ، ص ٤١ ؛

(٣) عن النظرة المعتدلة للطهطاوي إلى الغرب انظر :

SHARABI, H., Arab Intellectuals and the West, the Johns Hopkins press, U.S.A, ١٩٧٠، ص ٢٧ و٤٤-٤٦ ;

(٤) يرى محمد حسين هيكل ذو الميول الإسلامية أن كتاب «مستقبل الثقافة» أشد خطراً من كتاب طه حسين «في الشعر الجاهلي» انظر :

محمد محمد حسين، الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، ج٢، القاهرة د.ت. ، ص ٢١٨ ؛

(٥) طه حسين، مستقبل الثقافة في مصر، القاهرة ١٩٣٨، ص ١١، ١٤، ٢٦ ؛

(٦) Monroe, E, The Mediterranean in Politics, Oxford,١٩٣٨;

(٧) على سبيل المثال مجلة الثقافة، ٤ أبريل ١٩٣٩، «مسألة البحر الأبيض المتوسط، هل تكون مبعث الخطر على سلام العالم ؟»، المحرر السياسي ؛

(٨) Basfao, K, Henry, J-R, Le Maghreb et l'Europe : Que faire de la Méditerranée ? Vingtième siècle,

عدد خاص بالمتوسط، ١٩٩١، ص ٤٤-٤٥ ؛

(٩) AHMED, J.M, The Intellectual Origins of Egyptian Nationalism, Oxford University Press ١٩٦٠، ص ١١٣ ;

(١٠) مارسيل كولومب ؛ تطور مصر ١٩٢٤-١٩٥٠، ترجمة زهير الشايب، القاهرة ١٩٧٢، ص ١٨٥ ؛

(١١) أحمد عبد الرحيم مصطفى، تطور الفكر السياسي في مصر الحديثة، القاهرة ١٩٧٣، ص ٧٨ ؛

(١٢) محمد جابر الأنصاري، تحولات الفكر والسياسة في الشرق العربي، الكويت ١٩٨٠، ص ٩٣ ؛

(١٣) محمد محمد حسين، المرجع المذكور، ص ٢٩٩ ؛

(١٤) من هنا يقول طه حسين «جماعة كانت تقوم في مصر وكانت تسمي نفسها جماعة الرابطة الشرقية، وكانت تذهب في سيرتها وتفكيرها هذا المذهب الغريب، مؤثرة التضامن مع أهل الشرق الأقصى على التضامن مع أهل الغرب الأدنى» انظر طه حسين، المرجع المذكور، ص ١٥ ؛

(١٥) محمد جابر الأنصاري، المرجع المذكور، ص ١٣٤–١٣٥ :

(١٦) محمد محمد حسين، المرجع المذكور، ص ١٤٥ ؛

(١٧) مارسيل كولومب، المرجع المذكور، ص ٢٠٥ ؛

(١٨) محمد محمد حسين؛ المرجع المذكور، ص ١٤٦ ؛

(١٩) طه حسين، المرجع المذكور، ص ٢ ؛

(٢٠) عبدالله حنا، من الاتجاهات الفكرية في سوريا ولبنان، دمشق ١٩٨٧، ص ٩٢ ؛

(٢١) الرسالة، ٢٣ يناير ١٩٣٩ تحت عنوان «إلى الدكتور طه حسين» ؛

(٢٢) الثقافة، ١٠ يناير ١٩٣٩، تحت عنوان «بين الشرق والغرب» ؛

(٢٣) سيد قطب، نقد كتاب مستقبل الثقافة في مصر، جدة ١٩٦٩، ص ٢٧، نقلاً عن كمال حامد مغيث. الفكر التربوي عند طه حسين، رسالة ماجيستير غير منشورة بكلية التربية جامعة الأزهر، ١٩٨٥، ص ١٧١ ؛

(٢٤) على سبيل المثال الرسالة ٢٣ يناير ١٩٣٩، الثقافة ١٤ فبراير ١٩٣٩ وأيضاً محمد محمد حسين، المرجع السابق، وكمال حامد مغيث، المرجع السابق ؛

(٢٥) لتتبع تطورات المسألة العربية في مصر انظر :

Gershoni and Janrowski, Egypt, Islam and the Arabs, the Search for Egyptian Nationhood 1900-1930.

وللفترة محل الدراسة نبيه بيومي عبدالله، تطور فكرة القومية العربية في مصر، القاهرة ١٩٧٥، لا سيما الفصلين الرابع والخامس، وأيضا جابر الأنصاري، ص ١٣٤–١٥١ ؛

(٢٦) وفي نفس عام صدور الكتاب ١٩٣٨ هتف أحد كبار الرسميين العراقيين المؤيدين لفكرة ريادة مصر للعروبة «إلى الأمام يا مصر ونحن وراءك» انظر مارسيل كولومب، مرجع سابق، ص ٢١٠ ؛

لم يقدم ساطع الحصري نقداً حقيقياً للفكرة المتوسطية، ربما دفعه إلى ذلك أخذه موقع «الدفاع» عن القومية العربية، وربما يتضح ذلك من قوله «لما كانت لغة هذه البلاد عربية، فإن ثقافتها أيضاً ستكون عربية، وستشترك هذه البلاد في أمور الثقافة مع سائر البلاد العربية، لا مع أقطار البحر المتوسط، وسيساهم أبناء هذه السواحل وهذه الجبال مع أبناء سائر الأقطار العربية في تكوين ثقافة عربية راقية».

(٢٧) ساطع الحصري، أبحاث مختارة في القومية العربية، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٩٥، ص ١٥٦ ؛ وانظر أيضا في نفس الكتاب، الثقافة العربية

وما يسمى ثقافة البحر المتوسط، ص. ١٤٥، وأيضا ذيل مستقبل الثقافة في مصر ص ٢٥٨. وهو في مجمله دفاعاً عن القومية العربية، وأهمية اللغة في تكوين الثقافة، ورفض تام لدور الجغرافيا في تكوين الثقافة.

(٢٨) الرسالة، ٢٠ فبراير ١٩٣٩ ؛

(٢٩) الرسالة، ٢٧ فبراير ١٩٣٩ ؛

ورد على زكي مبارك كاتب «عروبي» من فلسطين قائلاً «ما العمل وإخواننا في مصر قد تضخم لديهم حب الذات حتى غدوا لا يبصرون في هذا العالم أحداً غيرهم ولا يقبلون في الثقافة العربية على غير مؤلفيهم مع قلة هذا الإقبال»، الرسالة، ٢٧ مارس ١٩٣٩ ؛

(٣٠) نبيه بيومي عبدالله، المرجع السابق، ص ٤٥ ؛

(٣١) سلامة موسى، اليوم والغد، القاهرة ١٩٢٧، ص ٢٣٤–٢٣٧ ؛

(٣٢) الثقافة، ٤ أبريل ١٩٣٩ ؛

(٣٣) الكاتب المصري، ديسمبر ١٩٤٥ ؛

(٣٤) نفسه ؛

(٣٥) حسين مؤنس، مصر ورسالتها، الطبعة الرابعة، القاهرة ١٩٧٣، ص ٥٧ ؛

(٣٦) كتب مؤنس هذا لأول مرة عام ١٩٥٦ بعد ثورة ١٩٥٢ ؛

(٣٧) نفسه، ص ٧٤ ؛

(٣٨) نفسه، ص ١٠٩ ؛

(٣٩) نفسه، ص ٨٧، ٩٧ ؛

(٤٠) جمال عبد الناصر، «فلسفة الثورة» ؛

(٤١) جمال حمدان، شخصية مصر، طبعة مكتبة الأسرة، القاهرة ١٩٩٥، ص ١٧٥، ٢٠٢ ؛

(٤٢) نفسه، ص ١٩٣ ؛

(٤٣) حمدان، المرجع السابق، ص ١٩٧ ؛

(٤٤) ومن وجهة نظر جغرافي وضليع في التاريخ وفي عبارة بليغة يحدد حمدان طبيعة شخصية مصر قائلاً «هي فرعونية بالجد، ولكنها عربية بالأب. ثم أنها بجسمها النهري قوة بر، ولكنها بسواحلها قوة بحر... هي بموقعها على خط التقسيم التاريخي بين الشرق والغرب تقع في الأول ولكنها تواجه الثاني وتكاد تراه عبر المتوسط»، نفسه، ص ٨ ؛

(٤٥) العربي، ١٩/٥/١٩٩٧ ؛
(٤٦) الشعب، ١٢/٦/١٩٩٧ ؛
(٤٧) الأحرار، ٣/٨/١٩٩٧ ؛
(٤٨) الأهرام، ٦/٣/١٩٩٧ ؛

إدوار خراط

أنا والبحر الأبيض المتوسط

ليس البحر الأبيض عندي مقابلاً – أو رمزاً، أو شفرة – للأم، أو المرأة، لأرتمي في مياهه كما يرتمي الرجل في أحضان امرأته الحنون الرحيبة، أو كما يلوذ الطفل بحِجر أمه الرؤوم، ليست أمواجه مما ألقي بنفسي إليها، مطمئناً، ناعمَ الحس بالراحة والاستسلام لهدهدتها في عناق مجالدةِ الحب.

ومع افتتاني به، وسحره الذي يوقعه بي، فكأنه أبٌ صارم حتى في لحظات هدوئه وسُجُو مياهه، فإنه كيان قلق ومقلق، غاضب حتى في رقرقته الوديعة، عميق لا أعرف – ولن أعرف أبداً – غور أعماقه وما يخفيه تحت صفحته الساكنة أو الجياشة على السواء، ولكني لا أستطيع أن أنأى بنفسي عن غوايته، وما أزال أقترب منه – على حيطةٍ وحذر – ثم أنأى.

نداءات هذا الكيان لا تني تهاجمني، السيرينات لا يتوقفن عن الغناء، والإغراء، وما من جدوى في أن أصمّ أذنيّ بالشمع أو أوثق نفسي بالحبال، كما فعل نوتيّة يوليسيوس.

صدمة أمواجه في أحجار الميناء الشرقية البيضاء ما تزال أصداؤها في جنبات روحي، منذ أيام الصبا الباكر، وما زلت أحس رذاذ مائه في الأصباح الشتوية مشرقة الشمس يطسّ وجهي ويبلل عنقي المفتوح.

وما تزال صفارات البواخر في الميناء تدوّي في ليل الذكريات الطويل، عميقة موحشة ومعزّية معاً تصلني في سريري في راغب باشا البعيدة عنها وأنا أقرأ جوزيف كونراد ورابندرانات طاغور، في منتصف ليلة رأس السنة، تحت اللحاف الثقيل، كأن البحر الأبيض في غرفتي يرقب أحلام الصبي الذي كنته – ولعلني ما زلته – يحلم بالحب والمعرفة والشوق إلى مهاجمةِ لغزِ الكون.

في الأيام التي كنت أرى نفسي فيها شاعراً، كنت في أصباح الشتاء النقية يوم الجمعة، أنزل وحدي إلى خليج ستانلي. كانت عيناي تحتفلان بعساليج النبات على الجدار المنبسط الناعم الذي يطلّ على البحر، الأعشاب الملتصقة بالجدار تحمل إليّ رسالة رومانتيكية مهتزة الأطراف، من جمال الكون، تعذّب قلبي وتواسيه معاً، أنزل على سيف الرمل، أمشي على شطّ الصخر، أشارف حافة

الموج، ويرشّني رذاذه، وأنا أغوص في تهاويم دوامات معاشقي الصبيانيّة – ما أحرّ لوعتها حتى الساعة – وفي تهاوِيم دوّامات الماء المزُبِدة الصغيرة وتخاييله في أغوار ضحلةٍ بين نقر الصخور ونتوءات الحجر، حيث السماء مصغّرة متموجة محبوسة ورقراقة في وهدات مسطّحة قريبة القيعان، أو أراقب نَهْك البحر مرتمياً مستنفداً على الرمل بزبده المرغيّ ووشيشه العنيد، مرة بعد مرة بلا انتهاء. وأفكر بغموض في أن هذه الأمواج، وهذه الصخور والرمال كلها أبدية، وأنها كانت هنا قبل أن أراها بدهورٍ سحيقة وستظل هنا بعد أن أذهب بدهور سحيقة. ألم أكن أرى نفسي شاعراً ؟

كانت ترتفع من مرآة البحر الرصاصية اللون صخرة ناتئة عريضة، قلت : «كأنها صخرة الواقع تصعد من أمواج أحلام وأشواق ما أشدّ سذاجتها». رأيتها مكسوّة بأكملها بالنوارس، كأنما حطّت عليها سحابةٌ كثيفةٌ مبطّنة بالريش الأبيض، ساكنة عليها، متشبثة بها. النوارس متجاورة متزاحمة، الجسم المطويّ يلتصق بالجسم المطويّ، وقد أحنت رؤوسها، وأدخلت مناقيرها الطويلة في صدورها، محنيّة الظهور، أجنحتها مطبقة إلى جانبها. كانت كلها تبدو ناعمة أنثوية، فِلْذات بيضاء من لحمِ أنوثة العالم، تمنيتُ لو خضتُ إليها غمار البحر، ورميت بنفسي في لدونة حنوها الدافئ.

ألوان البحر الأبيض قد أخذت تتخطّط، أمام عينيّ، بنفسجية وزرقاء وبيضاء فضية مُشِعّة، تحت سحابٍ أبيض تختفي الشمس وراءه، وتضيئه باحمرار سائل مُشاع، هدوء البحر عميق، صفحته مبسوطة لا تكاد تترجرج، وشوشة الموج الذي يترقرق، على مهل. خفيضة وروتينية الإيقاع، أسمع صوت الصمت المطبق، تطرزه وتنمنمه، فجأة، زقزقة العصافير التي تتواثب على الرمل الطريّ، وتنقر العشبَ اللزج والوَدَع والصدَف الحيّ بمناقيرها الصغيرة السريعة. ومن بعيد صدى نداء يتردد على الكورنيش «سَيِّد... حَسّونة..» لا يكاد يُسمع. وعلى آخر المدى أرى عاشقين غامضَين على الرمال العذراء. في هذا الفجر. أي هيامٍ لا يُقاوم ؟ أية رغبة مبهمة وخرساء، مطلقة، تدفعهما يمشيان على هذا الشط الموحش المبلول ؟

عند التقاء الرمل بالموج خطّ الطحلب الأخضر الذي يبيَض حينما ينحسر عنه الماء، غض ويابس على التوالي. بلا توقف، قلت

لنفسي : «أبديٌّ، دائم، أمام فنائنا وانتهائنا».

الشاطئ طويل هشّ مشدود، ملقى بين الفراغ والملء، رابض يموج بالحياة بين الأبيض المتوسط والصحراء الليبية، خصرٌ هضيمٌ ضامرٌ مسحوبٌ، قابلٌ للانكسار في أية لحظة، في أية بقعة، لا بؤرة له يتكثف وراءها ويحميها بنطاقٍ وراء نطاق من الحواجز الواقية. ولكنه لا ينكسر، عبر الأزمان السحيقة لا ينكسر، من الفراعنة إلى الاسكندر، من البطالمة إلى العرب، وحتى الآن، لا ينكسر، خطّ متموّج يقع على حرف هوّةٍ لا قرار لها، أمواجه متلاطمة، وحتى عندما ما تهدأ – في وهمي – فهي خادعة، لأنها دائماً مهدّدة بالعصف وضارية بجبال الماء. سحرها جذّاب لا يُقاوم، وجمالها لا يمكن أبدا الإحاطة به ولا الانتهاء من تملّي مفاتنه. قوية الأذرع ممدودة إليّ، تدعوني دعاءً لا أعرف كيف أصده، وهو مع ذلك دعاءٌ في الاستجابة له وقوع القضاء الذي لا مردّ منه، على هذه الحافّة الهشّة القلقة، بين الحياة والعدم، وطني الذي لا أعرف كيف أستقر إليه.

كنا في أواخر سبتمبر، وشمس بعد الظهر تصنع على صفحة البحر، تحتي، ملايينَ النُقَط اللامعة التي تبرق وتختفي وتعشي عينيّ، ورقة الماء تحتها عميقة وداكنة وكثيفة الشفافية في الوقت نفسه، فأمدّ بصري من نافذة كازينو كليوباترا العالية المفتوحة إلى الأفق الغامض في اتصاله بخطّ السماء المهتزّ بالضوء عندما رأيتها.

كانت، هي في حضن البحر الأبيض، كانت، هي على العكس منّي، في سياقها الآمن، تسبح تحت النافذة بالمايوه الأزرق الفاتح، محبوكاً عليها، لامعاً تحت سيولة الموج الخفيف الذي يترقرق عليه وينحسر في حركتها الناعمة، ذراعاها لا تكادان تصنعان رغوة في انزلاقها المنساب على الماء. عرفتُها. جسمها فاتح السمرة وغضّ، ولما يكاد يكتنز بأنوثته التي تتفتّح وتزدهر، في أول امتلائها الباكر، ولكنها أصغر سنّاً بكثير، فتاة بعد، ولها رشاقة سمكةٍ في الماء.

خفق قلبي، وتوقّف. مَن هي ؟ هل هي أخت لها، صغيرة، لم أرها من قبل ؟ كنت موقناً أنها هي، هي، أم هي الأخرى التي سوف

أعشقها، وأتوهّم أنني أفقدها. تعلّقت عيناي بها، مسحوراً وغائباً، وعندما انقلبتْ على ظهرها، تطفو فوق الماء، رأيت وجهها المدوّر الخمريّ، مغمّض العينين تحت الشمس، طافياً إليَّ، وكان شعرها الخشن الوحف قصيراً حول رأسها مبلولاً وداكنَ السواد، أعرف حرافة عبقه المُسكِر، خدّاها الأسيلان يومضان في استدارةٍ رخيمةٍ كاملة تحت الماء، وهي تبتعد، ساقاها، في بضاضتهما المخروطة العَبْلة، لا تكادان تتحركان وذراعاها تضربان الماء بحركةٍ خلفية منتظمة، إيقاعها هادئ، وهي تبتعد. وعرفتُ أنني سأحبها، في آخر العمر، حُبّاً كأنه الموت، وأن قلبي هو ساحة بحرها اللّجّيّ الجيّاش أبداً بأمواج لا هدوء لها، وقلت : «أليس هذا هو أيضا بحري الأبيض المتوسط ؟ هل هو بحر النار ؟ أم بحر الظلمات ؟»

أرى الولد، صغير الجسم، ساقاه رفيعتان في الشورت الأبيض الواسع، وقميصه مفتوح. عيناه كأنما فيهما نظرة متأملة، مبكرة كثيراً عن سنّه، وهو يقف في أول الصبح على حافة البحر الموحش، عند المندرة.

أمامه صفحة ساكنة وشاسعة، مشعّة ولا تكاد تترقرق، دسامة بيضاء في الضوء الذي يكاد يكون شتوياً، تنتهي برغوة شفافة تغوص في الرمل بوشيشٍ خفيض، متكرر.

وأُحسُّ، عبر السنين الطويلة بالنداوة اللينة تحت قدميه الحافيتين، والهواء المبلول على وجهه.

وأجد أن الشوق، مثل نزوع الموج، يرتمي على الشطّ ممدود اليدين، بلا تحقق، مثل اندفاع الماء، مستنفداً بعد رحلةٍ طويلة على ثبج العمر، ينكص محسوراً أبداً إلى عرض اليمّ العميق، ولا يفتأ يعلو وينحسر حلمُه يأتي ويعود، لا يهدأ إلى راحة، وكأنه لم يترك خطّ النهاية المتعرّج، لحظة واحدة.

في تلك الساعة لم يكن هناك غيره على الشاطئ الواسع.

كنت أحسِ نفسي وحيداً جداً، وهواء البحر يأتي على وجهي حاراً ثم رطباً على التعاقب، مرةً بعد مرة، ومحمّلاً برائحة الماء الملحيّة، أضاءت أعمدة النور على الكورنيش، معاً مرة واحدة، بقعاً مستديرة بصفرة وهاجة إزاء نسيج السماء داكن الزرقة الذي ما زال في طرفه احتراق الغروب، يسودّ بالتدريج، ونور المصابيح

المهتز يقع على إسفلت الكورنيش وعلى ظهور السيارات اللامعة التي تمرق بصمتٍ وسرعةٍ متباعدة وقليلة، لتختفي في انعطاف الطريق، عند الكازينو البعيد.

أمام الكابينة مباشرة التفتُّ فجأة فرأيت جسمَها يدور تحت عجلات السيارة، أمامي، ناعماً ولدناً بدون مقاومة، فستانها يطير ويتقلّب تحت السيارة، والذراعان تهتزان، والجسم يلتفّ مع العجلات مرة ومرتين.

أحسست العجلات المسرعة تطأ عظامي نفسها.

وسمعت صرخة ثاقبة في سكون الغروب.

ما من جدوى للسؤال : لماذا القسوة ؟ لماذا الموت ؟

كأن هذا الصبيّ ما زال يسأل.

ويطبيعة الحال ليس هناك من إجابة.

ها هي أسطورة البحر الأبيض عندي شخصية وحميمة، نابعة من «الواقع» أيا كان معنى «الواقع» ومنحدرة من تراثٍ عريق ما زال يمور بالحياة، تراث مصريّ وهيللينيّ وجاهليّ ومن ألف ليلة وليلة والسندباد الذي ضرب في بحارها، هذه أسطورة تتنفس في جوّ المتخيّل الشخصي الداخلي، تتحوّر وتتغير وتخلع غلالاتها السبع أو ترتدي أقنعتها السبعة على السواء، في حريةٍ كاملة، وهي مع ذلك تحتفظ بجوهرها الذي لا أعرف أن أفضّ سرّه. أسطورة لها قسَمات معاصِرة ولكنها أبدية.

أسطورة البحر الذي أحبّه وأَرهبه، أخلقها من جديد، وأجد أنها أزليّة كانت منذ بدء الزمان، ومعها أُخلق نفسي أو أعيد خلق نفسي من جديد، في كلِ لحظة، وأجد أنني أُوجَد في اللازمن.

البحر الأبيض عندي لا يقع فقط في الجغرافيا ولا في التاريخ، ليست له – فقط – ارخيولوجيا وثقافة وحضارة، ليس هو – فقط– ملتقى حضارات ومسرح صراعات، هو عندي فوق ذلك سؤال متصل، سؤال ميتافيزيقي وحميم : هل هو المجهول الذي لا سبيل قط إلى معرفته ؟ أم هو الأبدية التي لا شطآن لها، هو حالة من حالات الروح، وهو من ثمَّ جوهر شعري.

عندما كنت في السابعة من عمري – كنا نقضي شهور الصيف

في «أبو قير» التي كانت ضاحية بعيدة هادئة وخالية تقريباً، لا يؤمّها إلا العائلات المتوسطة أو الفقيرة، وكان شاطئ البحر هناك وديعاً وجميلاً، أخذني خالي حنين (الذي أسمّيه أحيانا ناثان) وذهبت معه داخل البحر قليلاً، وكان يريد أن يعلّمني كيف أسبح وحدي، وقال : «اضرب بذراعيك وساقيك وارفعْ رأسك مع كل ضربةِ ذراع لكي تتنفس»، ثم ألقاني في الماء.

لم أضرب بذراعي وساقيّ، بل غصتُ في الماء، أحسستُ أن البحر عميق غائر بلا قاع، وغصصتُ، وشهقتُ، وامتلأ صدري بالماء، اختنقتُ، وعرفتُ أنني قاربتُ الموت، بل عرفتُ الموت.

ألهذا يرتبط الأبيض عندي دائماً بالموت ؟

ألهذا ظللت أُبغض الأبيض، ويُغويني، وما زلت أحاذره مع أنني مفتون به ؟

الاتصال الوثيق بين الجسم الحيّ المتوفّز النابض وبين عمق اللامحدود اللانهائيّ.

الهامش الهشّ المشدود بين الحسيّ العيني الآنيّ وبين المجرّد المطلق، بين الجسمانيّ الملموس وبين الماوراء، الواقع واللاواقع، بين الخواء وأحاشد الموار بعرامةِ الشهوةِ والشَبَق.

ما أبعد هذا الحس عن الوقوع في خَطَر الفولكلور المكرور أو السنتمنتالية المائعة أو التهويم «الشعريّ» الخاوي.

هو حسّ متجسّد وضارب في اللانهاية في وقتٍ معاً، رؤيا من لحم ودم.

في «المكس» كان البحر فسيحاً، والرائحة المميّزة لليود وبقايا السمك وعطن الطحالب تفعمني، ها هوذا الأبيض، من غير رموز، من غير شفرة، قلتُ هل يمكن حقاً تجريده من رمزيّته ؟

مراكب الصيد الصغيرة بأشرعتها الضيقة تهتز على الموج الذي يكاد يكون مسطّحاً، وداكن الزرقة. رأيت الصيادين بالصديري واللباس الاسكندراني الأسود الواسع الطيّات، يبسطون شباكهم وينفضونها من السردين، فيتتابع ويصطدم ويرتطم بخبطات طريّة دسمة، ويسقط على الكومة الفضيّة التي ترتعد ما زالت بالحياة، في قاع المركب. ينحني الصيادون ويلقون بالسمكات

الصغار إلى البحر، والأولاد بأجسامهم المحروقة يسبحون حول المراكب، منهم العراة تماماً ومنهم من اكتفى باللباس العَبَك المتهدّل الذي يكاد ينزلق من على وسطه، يغوصون، برؤوسهم أولاً، ويخرجون على الفور وفي أيديهم السمكات الصغار التي رماها الصيادون تضطرب وتتملص وتتلوى وتنزلق، فيرمونها في أكياس مرتجلة من الخيش الغامق المبلول يشرّ منها الماء كلما خرجوا يشقّون سطح البحر. الحَجَر الذي رماه البناءون يصبح حجر الأساس. النوارس الرمادية ضخمة الأجنحة تنقضّ فجأة من علٍ وتخطف صيدها من المراكب، ومن أيدي الأولاد، صدورهم المخسوفة بلمع جلدها مشدوداً على العظام الناتئة، ترتفع وتنخفض باستمرار، وتحلّق النوارس ظافرة، صاعدة في خط مستقيم، وهي تنعق مهدّدة، غاضبة أو خائفة.

قلت : «ليس البحر الأبيض، فقط، استعارةً شعرية، أو نوستالجيا رومانتيكية، الجوع والفقر والكفاح من أجل البقاء على شاطئه الجنوبيّ ليس حلماً، وليس هذا الشاطئ فقط، منتجعاً للبورجوازيين وأثرياء الخليج وحيتان الانفتاح المصريين، صخرة النوارس من جليمونوبولو إلى المكس، صخرةٌ صلبة مهما كان ترابها من زعفران».

كنت قد أخذت ترام المكس المفتوح من الجانبين، وكان ألم الحبّ، والغيرة، والامتهان يعتصرني، للألم رائحة المدابغ النفاذة العطنة التي خنقتني، ولم أكن واثقاً أنها سوف تأتي، كنتُ قد تيقّنتُ الآن أنها لن تأتي، أقف غير مدرك تماماً ماذا يقع لي، تحت سور القلعة القديم بأحجاره الكبيرة الرمادية، يرتفع إلى يساري شاهقاً يحجز انهياراً دائم الحدوث، لا يحجب هذا الانهيار إلا كلماتي التي أخرج بها من قاع البحر، وكأنني لا أرى البيّاعين والصيّادين جالسين القرفصاء، أمام مشنّات ومغالق وقفف تفيض بالسردين والبوري والمياس والجمبري والكابوريا، أُحاذر أن أدوس على أجسام السمكات الصغار المنفيّة، مثل كلماتي، مهروسةً على الرصيف مسطحة، انبعجت من أبيضها بروزات مُدَماة باهتة عند البطن والرأس المدعو المسوّى بالأرض.

كان كل شيء يبدو مُعادياً، وقريباً جداً مني، كازينو زفير بخشبه الأخضر الداكن وزجاجه المغبّش يلوح لي غير بعيد، كذلك

مـزلـقـان سكـة الحديـد وعـليـه بـالخطّ الـثُلث الكبير، «ثـابت ثـابت وشركاه نترات الشيلي الطبيعي». كانت هذه الكلمات تجعلني أحلم باستمرار منذ أن كنت أجيء مع خالي حنين الذي أسمّيه خالي ناثان إلى الكازينو، ونأكل السمك بالليمون والبصل والبهارات في ورقةٍ دسمة طالعة سُخنة مِن الفرن. البيت ذو الشرفات العربية المنمنمة الذي تعرّفتُه، حائلاً وشكله مهجور ولكنه هو، بعد ذلك بأربعين سنة، فندق سي جَل - لم يكن عندئذٍ مطعماً مزخرف الأناقة يرتاده البورجوازيون، بل كان مبنىً مصمت الجدران رمليّ اللون مغوياً وغامضاً مغلقاً على أسراره المشبوهة.

عندما رجعتُ من «المكس» ومررتُ بصهاريج البترول الكبيرة والشعلة المتقدة المتطايرة التي لا تنطفيء، رأيتُ على سيف البحر صفاً من العساكر الأفريكان الشداد يقفون وظهورهم لنا، ينظرون في اتجاه البحر، شاكي السلاح - مشدودين، هل كان ذلك في العام ١٩٤٢ - ؟ هل كان روميل على رأس الفيلق الأفريقي يقف على أبواب العلمين ؟ أم كان المدّ النازي قد انحسر راجعاً على شاطئ البحر الأبيض، يتعقبه «فيران الصحراء» الإنجلين، والفرنسيون أنصار ديجول ؟ كانت البارجة الإنجليزية شاهقة بيضاء راسخة في البحر، ومشرعة مدافعها نحو مراكبٍ حربيةٍ صغيرة رأيت عليها حروفاً باليونانية والعلم الأحمر يرفرف من بعيد، كأنما باستماتة، على صاريها. العلم الأحمر صرخة عالية حيناً وخافتة حيناً لكنها لا تنطفيء أبدا، رأيت صفاً من العساكر بخوذاتهم وأقنعتهم الزجاجية التي لا ينفذ منها الرصاص، مدججين، يسدون الشوارع الضيقة التي ذرعها الأنبياء والشعراء، والحالمون، على الشواطئ الجنوبية في الإسكندرية وفي «المدن الخمسة» التي تدين بالولاء لبطاركتها، وعلى الشواطئ الشرقية القدس ورام الله والناصرة وبيت لحم والخليل، يقذفون الأطفال بالرشاشات السريعة الطلقات والقنابل المسيلة للدموع، هم أيضا يحيطون بالكتلة الحجرية، النصب الدائري الجرانيتي الذي يلمع بالليل في قلب ميدان التحرير، ويضربون الأولاد والبنات بالهراوات، هم أنفسهم، في الشمال البارد يسوقون الأسرى إلى عربات السكك الحديدية المغلقة الخانقة وإلى الخنادق الموحلة المثلجة في وارسو وسيبيريا وغرف الغاز في داخاو، ويجرون وراء عمال الغزل والنسيج في المحلة

الكبرى وكفر الدوار وكرموز، وراء طلبة الحقوق والطبّ وسائر العلوم على ربوة العباسية الثانوية في محرّم بك. دبّاباتهم الصفراء الصغيرة عارفة بنواياها، هم أنفسهم يضربون بالرصاص من البنادق الطويلة القديمة الطراز، فيسقط المئات في الساحة الفسيحة أمامِ قصرِ الشتاء في بطرسبورج القديسة، ويذهبون بلا جدوى، تصفُر سياراتهم السوداء المسدودة أمام السوربون في مايو العظيم، ويجرّون بمقاودهم الجلدية الكلاب مدربة الشراسة فتنهش سيقان السود في جوهانسبرغ أو المسيسيبي على السواء. وسوف أعرف بعدها بسنوات، أن الإنجليز قتلوا مئات من البحارة الثائرين الذين انضموا إلى جيش التحرير في اليونان، وأسروا الباقين حتى انكسرت الثورة بعد الحرب، كم من الثورات اندلعت ثم انكسرت على شواطئ المتوسط ؟ أحقا ذهبت كلها، بلا جدوى ؟

شِباك الصيادين مفرودة على حجرِ الكورنيش المنخفض، مغسولة تفرح برائحة السمك، تنتهي بالثقالات التي تمسك أطرافها، وتوحي بشكل ما، بآلات الهارب الموسيقية التي تعزف أنغام البحر العميقة. وقد ركعوا تحتها، بأجسامهم الناحلة المفتولة، وطيّات اللباس الاسكندراني الأسود ملمومة تحت جذوع السيقان الجافة، يرتقون قطوعها بإبرٍ طويلة تومض عندما ترتفع وتنخفض بين فتائل الشَبَك.

القارب الصغير، مشدود الأضلاع، كأنما يتأرجح على سيف البحر، عند الخطّ الفاصل بين الرمل والماء، يمسك دفته القردُ الإلهي العاقل، مدموك البنيان. أهذا القارب هو الذي يمضي بي، فيِ هذه الحياة على شط البحر، وهذا الحيوان الإلهي هو الذي يسيّره ؟ حيوان يقطن في داخلي ويتجسد الآن أمامي.

القامات الأنثوية الرشيقة بنات الإسكندرية، بنات البحر الأبيض، عبرن بحياتي، لكنهن لم يذهبن سُدى، بل باقيات، ماثلات، معي على هذا الخطّ الحرِج بين أبدين لا بداية لأيهما ولا نهاية. أراهنّ في عكس النور، قاماتٍ مجسمةٍ سوداء، والنهود ثمار أخرى لامعة الجلد، ناهضة بعصارتها الكثيفة المتماسكة.

تنزلق الحمائم الداكنة منسكبة، بالكاد تماماً على سطح البحر.

هل نزل البحارة بخناجرهم العريضة، وذهبوا بهنّ إلى سفينة القراصنة، جوانبها مصفّحة برقائق الذهب، غارقة محمّلة بالكنوز التي ليست إلا كلمات باهتة، هل هي كنوز من هباء متطاير ؟

ما الذي يهفهف خلف القلعة العريقة التي لا يكاد الزبد نقّى البياض يرغي تحت سفحها ؟

أراه من فوق حافة كأس «ماري الدامية» وأوقن أنه ليس ثمّ شيء.

كل شيء سوف ينقلب بين لحظة وأخرى إلى نقيضِ ما يبدو عليه.

القارب السحري مركب سمك فقير عاد به الصيادون إلى المرسى بعد كدح ليل طويل في قبضة الموج. تتزاحم بنات الأنفوشي وبَحري ورأس التنين عليه، والستّات التُخان بالملايات السوداء النازلة من على الأكتاف المدوّرة، تبدو منها قمصان النوم غير النظيفة تماماً، عارية الأذرع والنحور، ليأخذن منه بالرُخص شروة سمك ملء القُفّة، ملء الحلة من السبارس والشرّ الصغير، أو ملء الكروانة جمبري عاجي الجسد.

السفينة السحرية شراع مبسوط في نسيم الصباح، فرد جناح حمامة بيضاء، تحلّق وحدها في سماء الإشارات والمجازات، والاستعارات، سبحة صبابة، وجد لن يبقى منه أثر.

أترقب وأتوجس خيفة من الزوال والدثور، ملهوفا أمام دوران دراما لا سيطرة لي عليها ، لا أدري عَمَ تتمخض في أي لحظة، أحس رفرفةً في داخلي لا أعرف أن أهدئها، ولا أريد أن أطامِن من روعها.

وأعرف أن هذا كله قرين البلى، وأن العطب لا محالة مدركي، والتهلكة.

ولكن هذه التهلكة هي كل نصيبي من البقاء.

موسيقاي تعلو وتذوب على جدران الروح. بائع الصحف أمام حلواني أتينيوس، على البحر، يمد لي يده أبدا بصحيفةٍ من غير تاريخ هل هي «تشاودروموس» باليونانية، «البروجريه اجيبسيان» أم «الأهرام» ؟ قشعريرة نار النَدى سورة حميّها اليأس والطلب والشجى معتم النيران، جاتوه «ميل فِيِيّ»، وأصابعي

المشفوفة ترسم نداءها على وجنتيكِ ألف مرة، وتقف على حفافي شفتيكِ، المحطة الأخيرة في كليوباترا الحمامات، وربوة سيدي جابر الصخرية، البكر، قبل أن تمتد إليها أيدي التنسيق والبناء، تزحف في شقوقها القواقع بأجسامها الهشة التي لا مناعة فيها، وراء صدفة من الاحتياط، قناع من التمويه لا يخدع أبداً، توكاتا وفوج باخ عمل ٥٤٥ مقام فاكبير، نباتات متلوية على جانبي عنقكِ المبتلّ بماء البحر، هذيان السُكر بموسيقى جسدكِ المتموّج في المياه كأنه تجسيد لهذه الأمواج نفسها، شفتاي على الندبة الصغيرة تحت أذنكِ اليمنى. أنت معي، لا اختيار لي. يا بنت اسكندرية، يا بنتَ البحر، الواحدة مهما كنتِ كثيرة. كثيرةٌ عليّ. تلجئينني إلى الصمت. هل هناك في الآخر إلاّ الصمت ؟ مهما ظلت أغنياتي الاسكندرانية، وترانيمي لبحرها، صادحةً إلى أبد الآبدين.

على الكورنيش في آخر رشدي باشا، سلالم حجرية – أُحسّها الآن تحت قدميّ – منحوتة من البازلت، تنحدر إلى أول شاطئ ستانلي.

على شمالي، وأنا نازل السلالم : ساحة صغيرة أمام كازينو رشدي الخاوي دائماً حتى في عزِّ الصيف، وإلى يميني جدار عالٍ عريض، مصمت، يسحرني، ليس فيه نافذة أو فتحة من أي نوع. في لون الكِريم، تنمو عليه وتلتصق به تعاريج نباتٍ داكن الخضرة، نضر، كثير التفاريع. وهواء البحر يسفعني.

أجد فجأة أنني أصعد، بسرعة، هذه السلالم الصخرية.

وأجدها فجأة ضخمةً جداً، شاهقة، وعرة المرتقى وخشنة الملمس، حوافّها المدببة تحوطني من كل جانب، وقد أصبحت الصخور أعرض وأكثر تهديداً وخطراً كلما ارتفعتُ. لا أنظر الآن تحتي، ولا ورائي. ما زلتُ أتسلق هذه الوعور الفسيحة الضاربة في السحاب، البحر، تحت، سحيق، وأمواجه لا صوت لها الآن، الزَبَد الأبيض يبدو زخرفياً، أو غير مقنِع ، غير حقيقي.

وجدتُ أنني وصلت إلى ذروة سامقة في قلب السماء، وما زلت معلقاً بين البحر وهذا النقاء الذي لا يُطاق.

في العالم صفوُ الأبد كأنما بَرِئَ من الزمن، وأنت، أيتها الاسكندرانية الصغيرة القد منمنمة القسمات، كأنك بنت ما زالت

خاماً، وفيها جفاوة العذرية المغلقة كصبّار غضّ الشوك، يا بنتَ هذا البحر الغامض المقلق هل منه اكتسبتِ هذا الغموض، وهذا السرّ ؟ أشجار النخيل السلطاني الطويلة المسحوبة بيضاء القامات، لها حفيف بارد في ساحة جليمونوبولو المستديرة، أطلّ عليها هكذا من هذا العلوّ الشاهق.

لا أستطيع أن أهبط، شُلّت قدماي. وقفتُ لا أتحركن واليقين قد استبد بي إنني سوف أتعثر، فأتدحرج إلى حضن البحر متقلباً ممزّق الأطراف على هذه السلالم الحجرية الشاسعة، شائكة الأطراف. قاتلة، هوذا البحر يأخذ ثأره أخيراً.

في تلك السنة أجّرْنا كابينة في مصيف «أصدقاء الكتاب المقدس» في المَنْدَرة. وكان للمصيف سور منخفض من الطوب الأحمر حول أرض واسعة ناعمة الرمل. يطلّ على البحر، وكنت أحب أن ألعب تحت النخل العجوز العفّي خشن الحراشيف ، بين الكباين الخشبية المتناثرة من غير نظام، وأن أنظر إلى عناقيد البلح الأخضر المدوّر تقريباً بغضارته الكثيفة تحت السَعف العريض، وهو يهتز مع هَبّات هواء البحر، بأطرافه الشوكيّة المسنّنة على زرقةِ السماء التي تكاد تكون بيضاء. وكانت الفراخ تجري وتنقّ وتلقط أكلها من الرمل تحت النخل وحول الكباين، وتهرب منا أحيانا في اتجاه شاطئ البحر المفتوح. وكنا نقفل الباب الخشبيّ في السور، عندما نجري وراءها، أنا وأُمّي، لنمسك واحدة. وتذبحها أمي بالسكين الحادة التي تومض في الشمس، وهي تقول «باسم الصليب، وشارة الصليب كاكْ كاكْ، إلهي يصبّرك على ما بَلاك» ثم ترمي الفرخة على الرمل تصفّي دمها وهي تجري قليلاً ثم تسقط وأجنحتها تتخبط بجسمها.

وكان أبي يأخذ حمّام الصبح مع أمي، مبكراً جداً قبل القهوة، هو بالمايوه الأسود الطويل الطويل كالفانلة، وجسمه كالعود مشدوداً ، وله عضلات جافة ونحيلة. وهي بالمايوه القماش، غامق الزرقة، مقفل تماماً، له أكمام قصيرة مكشكشة عند أعلى الذراعين وينزل إلى الركبتين، وكانت قد فصّلته وخيّطته بنفسها على الماكينة السِنْجر القديمة رفيعة البطن التي بهتت الكتابة الذهبية عليها، قليلاً.

وأجري معهما، وأنا لما أكد أصحو من النوم، بالشورت الأبيض والقميص الخفيف، نعبر الكورنيش لامع السواد من أمام المصيف مباشرة، هواء البحر البارد بعد كِنّ الكابينة ودفئها يصدم وجهي، والسيارات قليلة جداً في هذه الساعة، وننزل إلى الرمل الواسع المتحدّر، وليس فيه ولا شمسية، ولا أحد، واقف على حافة الماء وانتظرهما حتى يعودا من البحر، وعلى ذراعي الفُوط الطويلة كثيفة الوبرة.

لماذا لا أرمي بنفسي في خِضمّ الموج ؟

لماذا أقف على الخط الحَرِج دائماً، أرقب تقلبات البحر، أتأملها، وأعيشها فقط في داخلي؟

لا أستطيع أن أزعم أن ذلك قَدَر.

فهل هو حقاً اختيار ؟

فكيف يمكن – هل يمكن – كسر هذه الصَدَفة الصلبة، عند شاطئ مَرْسى مطروح ؟

الصخور المعوّجة شاهقة قشرتها اليابسة المتحاتّة تتحدانا :

ضربات السحب المشتعلة بشفق أصباحٍ وأماسٍ لا عداد لها.

ارتطمتْ بها بلا نهاية أمواج الدهور حفرتْ في سطوحها تجويفات غائرة ومحدّبة ومتعرّجة الأقواس. جحافل قمبيز لم تنلْ منها ولا فيالق الاسكندر وطأتْها في الطريق إلى معبد آمون. انهارت الأعمدة سقطت تيجان اللوتس الحجرية عنها وذبلت في الرمل القليل بين تشكيلات الحجر أهواء معاشق عقيمة وصرعات أجساد شبقة وأنين احتضار تحت حوافٍّ ناتئةٍ جارحةِ السنان. انسكبَ لَبَنُ ألفِ أتان كلّ يومٍ مزبداً برغوته جلوة المذاق بين حيطان صلبة نعّمَتْها أيدي ألف عبدٍ أسود. سيقان ملكة الإسكندرية تلمع في زبد اللبن وزبد الموج، وقد جاءت الآن إلى حمّامها البعيد عن ملاحم الحرب والحب والمجد والإحباط.

ويدور الصخر فوق الكُتَل الشظايا.

حروف الجُرف بعد الجرف ناتئة ومخسوفة ومائلة ومنتصبة، فوق شفافية لازورديّة لا يستطيع أن يلوّثها بنزين الأوتوبيسات السياحية المحملة بالعاملات في الشركات والهيئات والمؤسسات

محجّبات سابلات الثياب طويلات الأكمام معتمرات بالعمامات الحديثة الطراز والعقالات الخليجية في الشوارع وعلى الشاطئ العالي أصحاب اللحى والجلاليب القِصار على أبدانٍ سمينة ومتينة وبذيئة الصحة وجَهْمة الحضور.

على سطوح الشِعاب الجبلية الكتابات باللاتينية واليونانية والعربية ورسوم القلوب المضروبة بالسهام الساذجة وهيروغليفية الصقور والثعابين المتموّجة وريش مَعْت وديموطيقيّة الصُلبان العتيقة والذكرى ناقوس يضرب في وادي النسيان فلعل الرسم يبقى بعد فناء الجسم. لكن البحر لا يملَ ولا يبالي في الوقت نفسه.

جوّن الخليج الأزرق لا مثيل لصفاء مياهه تحت الأكمة الشاهقة التي يتلوّى عليها ممر نازل ضيق ألفيّ مهّدته أقدام المغامرين والمتكشفين والمحبين الباحثين عن ملاذٍ يأوون إليه بحبهم المهدّد باستمرار بشروخ ضارية في لحم الصخر.

شقوق مشرّجة ومتشعبة لا تلم لها وشائج بل هي غير مشروطة إلا بأشواق حجرية لا ينتهي خشوع ترتيلها لآلهة متعاقبة متراوحةِ الرحمة حيناً ولا شفقة في قلوبها في أغلب الأحيان.

ارتمت الأمواج الدهرية تحت تماثيل شاهت الآن وأمحت شكوكُها واحتضنت تموجاتِ الجفاف وارتضت جمود التواري وراء صلابة الصمت ويبوسة النسيان.

سحب بيضاء ذيول مفرودة كطاووس أبيض في السماء.

سماء الروح التي لا تريد أن تنطفئ.

تتلقى هذه السحب، دون توقّف، طعناتٍ ثابتة من الأعمدة الخرسانية التي تنتهي بشَعَثٍ من الحديد المسلح متلوياً ومعوجّاً، ضارياً في الزرقة البحرية الساجية لهذه السماء الاسكندرانية التي لا مثيل لها.

كان الصبح العالي مختبئاً وراء السحاب الأبيض، ما زلتُ أحس أنفاسه، والشمس تتخايل تخترق الحجابَ ثم تتوارى. أحس دفق ماء الشتاء الصاحية في جسمي سعيداً سعادةً فيزيقية بحتة، بمجرد المشي السريع على الكورنيش في مواجهة الهواء. يؤنسني

وشيشُ مياه البحر تصطدم ناعمة، بصخر الشاطئ عند جليمونوبولو، لا تتوقف، كأنما تثبت بإصرارها ودوامها، رسالةً تهدهد من هواجس قلبي.

هواء البحر القوي يصطدم بوجهي، ضممت ياقة معطفي الواقي من المطر حول وجهي متلمساً دفء الفرو الداخليّ، والرذاذ يصعد إلى من خبط الموج على الصخر. كُتَل الحجر الرازحة مغطاة بالطحلب المبلول داكن الخضرة تحت.

هل أجد في غضون ذلك كله أليجوريّةً ساذجةً إلى حدٍ ما ؟

ألا أنتهي من الاستعارة والتشبيه ؟

أم أن هذا هو جوهر المسألة كلها ؟

ليس البحر الأبيض المتوسط عندي مجرّد أليجوريّة، واقِعهُ الصلب – على كل اتساع مياهه – يستعصي على أن يستحيل إلى مجرد لعنةٍ فنية، مهما كان في هذه اللعبة من جديّة صارمة، لا حدّ لجدّيتها.

السماء بلون الكوبالتْ الأزرق العميق في الغسق. لماذا يسحرني لونُ الغسق ؟

أنذيرُ الغياب والفقدان ؟

أم نعومة التسليم لضياعِ الجسد الوشيك ؟

أسمع سعفَ النخيل السلطانيّ على جانبيّ محطة الرمل القديمة، يهفهف. ما زالت تخايلني حتى الآن. هذه المحطة القديمة، وكشك ناظر المحطة الخشبيّ المسقوف بالقرميد الأحمر الداكن، فيه دفء كفاءةٍ مفقودة، واحترامُ الدِقّة التي ولّى زمانُها.

أجلس في «كازابلانكا» في الدور الثاني، وراء النافذة الزجاجية العريضة. الغيمُ في سماء الصبح البدريّ ينزلق فوق البحر البعيد، انتظر كقلبٍ واجفٍ أن تعبر نِعمتي، أمام المقهى.

صغيرة الجسد، موسيقية الخطوة، مرهفة الخصر حتى تكاد تطوقها أصابع يدي، فستانها الأصفر الفاتح فريد في لونه ونسيجه وفي أناقة انسيابه على القد الرشيق البضّ معاً، ينوس على الساقين بسمانيتهما الممتلئتين، كاملتين في دقة سَحْبَتِهما،

كاملتين في دوران خَرْطَتهما، إيقاع مشيتها عندئذٍ يتردد الآن في ساحة روحي التي أظنها قاحلة خاوية حيناً، وأراها حيناً مزدحمة مثقلة بكراكيب الذكريات وأنقاض السنين.

أما زلتُ انتظر عبورها ؟ وهي المقيمة ؟

لماذا أجد أنها رسالة رؤياها البحر، مهما كانت تقطن في أفريقيا ؟

لست واثقاً أنني سوف أرى الآن مَن تَعِزّ، بل تستحيل. بل أعرف أن ذلك لن يحدث، مع أنه قد حدث، في فترةٍ ما لا انتهاء لها، على شطّ هذا البحر.

أهذه شذرات ممزقة أسمع حفيفها من الداخل ولا أرى لها أثراً ؟

أنا الآن في السابعة من العمر، ما زلت وحدي، في «أبو قير» على سيف البحر، في وسط خليج صغير، مملوء بمياه شفافة بلورية النقاء، تترقرق فيها خطوط متعرجة كأنها مرسومة بقلم متحرك رقيق، تذهب وتجيء بنعومة بين الصخور الصغيرة اللامعة التي تنحسر عنها المياه فتجفّ بسرعة ثم تعود فتبتلّ.

سرعان ما غاب المايوه الأزرق الباهت الذي كانت ترتديه فيكتوريا – كنتُ أحبها – وكانت ممشوقة القوام جميلة، أنثوية وكأنها ليست من هذه الأرض، أصبحت الآن نقطة بعيدة في البحر الواسع. وكانت أمي قد سبقتها إلى ما بعد البراميل، فلم أكد أراها بين ما تثيره الأمواج من زبَد قليل.

كنت أقف في وشل الماء الصافي قليل الغور، وأنظر إلى الجسر الخشبي الممتد إلى داخل البحر على أعمدة مستديرة قصيرة من الإسمنت اللزِج تنتفض عليه طحالبُ خضراء شفافة، تلعب في الماء، وتهتز، مخلوقات حية، ثم تخرج من سطح الماء مبللة ممتزجة الألياف، ثم تجفّ فجأة وتصْغر وتصبح يابسة كالورق القديم، بلا حراك.

ولم يكن هناك الآن، في الظهر، من يقف على الجسر بأعواد البوص وجرادل الجمبري والدود الصغير طعم الصيادين الهواة، فقد كانوا قد انصرفوا، وتركوا كل شيء وحده، كان الجسر يمتد بخشبه الجاف بعيداً إلى داخل البحر لا ينتهي إلى غاية.

كانت الوحشة على الشاطئ كاملة، لم يكن هناك أحد من المستحمين في هذا الظهر الهادئ، وكانت الشمسيات المتناثرة المتباعدة قديمة الألوان، تلقي بظلها على المقاعد القماشية المفتوحة الخالية، وحتى حارس البحر، بصفارته النحيلة الصوت لم يكن موجوداً.

كنت وحدي لا أعرف كيف أدخل البحر الواسع العميق المخيف الساحر، ولا أعرف كيف أرجع عنه، ما زلت أقف – وأنا في هذا العقد الثامن من العمر – أقف هناك على شاطئ البحر الذي أحبه ولا أفهمه.

كنت وما زلت أذهب، في مضض هذا الحب الذي لم أكن أعرف كيف أحتمله ولا أعرف كيف ينتهي، إلى كازينو كليوباترا، وأقضي ساعات بعد الظهر المبكر أنظر إلى البحر، وأحلم أحلاما مضطربة، أحاول أن أقرأ رواية، أو أنتظر صديقاً قبل ميعاده بكثير، أو أقرر، خلال ساعات، هل أذهب إلى سينما، أي سينما، أم إلى قهوة الفريسكادور أو باسترووديس في شارع سعد زغلول، أو سان جيوفاني في ستا نلي، لمجرد أنني لا أطيق البقاء بين أربعة حيطان وحدي.

لا غفران أبدا لقسوة العالم، على هذه الشواطئ، وعلى كل شواطئ العمر وشواطئ الأبد، قسوة نهائية مطلقة، لا شيء يرجحها، أو يفسّرها. ونبض دمي يضرب في الوحشة والصمت. ما أشد الإيجاع... الدموع لا تجفّ ولا تُرقأ، ولا تعني أحدا على أية حال.

إذا كانت هذه القسوة سمةَ من سمات هذا البحر، فإنها – كالحياة نفسها – لا تتنافى مع حيويةٍ نابضةٍ متجددة تستقي مياه وجودها من عراقة الأرخيولوجيا وحداثة الواقع المعاصر معاً، حيويةً نابعة من ثقافات قديمة ومتنوعة تشكّل نوعاً من الهوية المشتركة فيها تناغم وفيها تناقض ولكن ليس فيها مونوليثيه مُصمَتة قالبية، هذه الهوية تدخل فيها آثار تراثات عريقة، لكن لم يعفُ عليها الزمن، ليست فقط تاريخية بل هي ما زالت فعّالة، ما زالت تملك شحنة قوية من الطاقة.

انطلقت قريباً جداً منّي على الشارع الضيق بين شاطئ المكس

وحائط القلعة القديمة المهجورة، عربةُ حنطور مثقلة بالعساكر الأستراليين، مكومين فيها ومتدلّين من جانبيها ومعلّقين بمؤخرتها، بقبعاتهم المدوّرة العريضة وجثثهم الضخمة الشاهقة، عملاقٍ منهم أخذ مكان العريجي الذي انحشر جنبه فارغ اليدين مُسَلِّماً أمره لله، والعملاق أخذ يفرقع بالكرباج فوق ظهر الحصان، فراح يعدو كأنه قد جمح بالعربة المائلة إلى جانبها بخطورة، والأسترال يصفّرون صفيراً ثاقباً يائساً ويصرخون باستماتة : ها.. شي.. شي، بأعلى أصواتهم، في صمت الشارع الخالي في عتمة المساء، ذاهبين إلى موتهم في «العَلَمين».

بعد أنقاض البيت الذي سقط عليه طوربيد طلياني، السنةَ التي فاتت، وتكومت أحجاره القديمة وترابه وخَشَبه، ونبتت فيها عناقيدُ مُلتفّة من النباتات والحشائش شكلها، في العتمة، مهدّد، كانت رائحة البحر دافئة.

كانت مصابيح النور الزرقاء متباعدة وأبواب البيوت مفتوحة ومظلمة كأنها لا تغلق أبداً، ورأيت جماعات صغيرة من العساكرِ الأمريكان السود الضخام، والإنجليز الشُقر ناحلي القامات، وعدداً قليلاً من أهل البلد بالجلاليبِ والبلاطي الخفيفة أو البنطلونات، معظمهم كبار في السن جداً، يخرجون ويدخلون البيت بصمت وسريّة.

حضور هذا البحر قويّ وصوت أمواجه تضرب حجارة الرصيف رتيب وعنيد، نزلت جماعة صاخبة من عساكر الأستراليين، بقبعاتهم العريضةِ الواسعة، من عربة حنطور وقفت أمام كازينو «زفير»، وهم يصفّرون للبنات والنسوان بملاءاتهنِ المحبوكة على الأرداف، ويهتفون دون جدية ودون اهتمام تقريباً :

«Come on, Luv ,» Fantazia «Come on Bint..»

صياد فارع وشابّ محروق الوجه ووسيم وأزرق العينين، ما زال – وحده تقريباً – يقف أمام بضاعته التي خرج بها، بعد طول عناء، من الأعماق المظلمة، ينحني على طشت كبير وعميق مليء بماء البحر، تخبط في جدرانه النحاسية المستديرة تِرسة ضخمة، محبوسة وحيّة وبطيئة الحركة.

الترسة تواجه الآن، في الحبس والقهر، مصيراً خانقاً.

أتصور أن للبحر الأبيض ثقافة وفعالية تتسم، إلى جانب القسوة والصراع، بميزات أراها متوسطية بامتياز، هي بالتحديد، الاحتفاء بجمالِ الحياة ومسرات المعرفة، والنشوة بالحب، ووضع المطلق المتسامي، الصحراوي أو الجبلي أي الحارّ العنيف أو الصخري السامق، في مقاييسه الإنسانية، إن «المتوسطية» لا تروّض المطلق الوحشي ولا تدجنه، بل هي تؤنسنه، تجعل من ألوهيته وضعاً إنسانيا، أي توحِّد توحيداً كاملاً بين الإلهي والإنساني، هذا هو ميراث الأرثوذكسية القبطية الاسكندرانية، في مواجهةِ صَلَف الكبرياء الإلهي الجرماني مثلاً، أو في مواجهة انسحاق البشري الهندوكي مثلاً، في الوقت نفسه.

ليس الأوليمبوس بعيداً عن شواطئ المتوسط، وما يدور فيه من مكائد ودسائس وعربدات إلهية هي أساسا على المقياس الإنساني، وليست الهيلينسيّة الاسكندرانية بعيدةً عن النقاء الأثيني الملتبس بين مثالية أفلاطون و«موضوعية» أرسطو.

وإذا كنت أحس أنني – حقاً – حفيد كاليماخوس، وأبولونيوس، وثيوكريديس، شعراء الموزيون السكندري العريق، فذلك أنني متوسطيّ وصعيدي في الوقت نفسه، وثنيّ وقبطيّ معاً، مصريّ وعربيّ معاً، والمتخيّل المتوسطي عنديٍ هو تلك الرومانسية الصارمة، وتلك النشوة الرعوية التي لا تغمض عينيها قط عن الهموم اليوميّة، من غير أن تسقط في ابتذال اليوميّ العارِض، وذلك البحث الدائب عن آفاق غير مسبورة، هؤلاء الشعراء المتوسطيون هم الذين كانوا أسبق إلى تناول ما هو أرضيّ وسامٍ متعالٍ، ما هو واقعي وما هو أدخل في باب السرّ وغير المتوقّع وغير المعروف معاً، وإذا كانت صعيديّتي الحارّة العارمة المحوطة بالسرّ والغموض تغلب متوسطيّتي أحيانا، فما زلتُ أبحث عن توازنٍ محكومٍ عقليّ وعن تدفق عفوي متتالٍ في وقتٍ معاً.

وما زلتُ أحس بالقربى الوثيقة بين اسكندريتي –واخميميتي– بين تامودا (تطوان) وطرابلس، بين تيباسا وتاباروا (صفاقس) بين توجلوس (جسر الماكينة) وأوجستا تورينوريام (تورينو).

ما زلت أحس بالقربى الوثيقة بين الملحميّ والشائع، بين الصرحيّ الشامخ واليوميّ الأمين الصامت، بين السريّ الملغز

وضوء المتوسط الساطع، بين المنمنمات الأرابيسك الذاهبة إلى اللانهائية وبين الخرطوشة محددة الخطوط المغلقة على حدودها سواء كانت هي الفرعونية أو البلطمية التي هي أيضا ملكي وميراثي.

ما زلت أحس بالقربي الوثيقة بين الأبصاليات والذكصولوجيات القبطية التي ترتّل في تمجيد الرب ومدح العذراء في بهجة الأعياد، وبين مقامات البديع الهمذاني التجريدية الشكلانية. فيما يبدو لأول وهلة، وبين أشعار الحلاج وابن عربي ومخاطبات النفري، التي توشك أن تكون ملغزة عييّة وما أعظم إعجازها وفصاحتها في وقتٍ معاً.

على ذلك الحدّ الدقيق بين الوضوح والإبهام يقع المتخيَّل المتوسطي عندي.

أي بين القاعدة الذهبية، والتوازن المحسوب والتعقّل المنطقي من ناحية، وبين الجموح والاندفاع والجنون من ناحيةٍ أخرى، وفي الآن نفسه.

فإذا كنا نذكر أبولون فلعلنا لا ننسى ديونيزيوس ولا العربدات الأورفيّة، وإذا كنا نذكر أرشميدس وبطليموس الجغرافي فلا ننسى قسوةَ الرهبان النُسّاك بين حفافي المتوسط والصحراء، ولا ننسى الصوفيين والدراويش ومجانين الله.

ذلك أن للمتوسط بُعداً إفريقيا لا يقل أهمية عن بعده الشمالي.

ما أشد رهبة هذا اليمّ، وما قوى دعوته وغوايته، عذوبته لا تُضارَع.

سرتُ على الرمل المبلول متجهاً إلى هذا القبرِ الطامي بكُتَل الماء الضخمة السوداء، حتى وصلت إلى الشطّ، وكان تصميمي ثابتاً وكأنني في غيبوبة، وكانت أمامي خطوة واحدة.

أتخيل عالماً كله لحظات حادة ولامعة.

كحدّ سكين.

قاطعة.

ليس فيه لحظات مترهلة مجوّفة سميكة الجلد.

ليس فيه عجين حامض خمران.

أريده.

عالماً لا يُطاق.

كأن حبيبتي – هل هي إسكندريتي أم هي امرأتي الواحدة المتعددة معاً ؟ – لم تغرق تماماً في لحم جسمِها. ذهبتُ إليها طافياً على غَمرِ هذا الجسد.

فكأن جسمها سوف تترقرق على سطحه مياهُ البحر غير المرئية.

سكبتُ نفسي على جوارحها الناعمة.

سوف أقول : عينان كأنهما زهرتان منوّرتان طافيتان على ماء الشاطئ وأبو قير وجليونوبولو.

عبق ماء البحر الملح، نفث سمك ذفره يتضوّع.

الصَدَفة التي رأيتها، ذات حلم، ورديةَ اللحم، داكنةً، حجريةَ اللزوجة، متماسكة وطريّة، على شاطئ جسمي الرمليّ، ما زالت ماثلة، لا تغرق ولا تجفّ.

ليس فيه عودة، ولا مجيء ذلك البحر قائم، لا يَحول، وتلك التي معي. هما البدء الذي لا يزول ولا تدور به دورة ما. البدء أصلاً قائم دون أن يكون ماضياً ولا حاضراً وليس له مستقبل.

هو «الآن»، فقط، دون أدنى حس ٍله «الآن».

عصا سحرية قد محت عنه المستقبل الذي أصبح فيما بعد والذي لم يطرأ قط بعد ما كانت معي وكان هناك سلام، ونور الصبح الرائق.

جئت من «محرم بك» مشياً، إلى «محطة الرمل»، تركت ورائي أحزان صباحٍ ثقيل السحاب في سماء الإسكندرية الفضية، المقفلة على نفسها فوق البحر، وعَبْر «السلسلة»، وقفتُ عند «الشاطبي» تركتُ الكورنيش، ونزلتُ على سلالم متعرجة منحوتة في الصخر المتآكل الزلِق تحت قدمي، وكانت السلالم تغوص في مياه بحرية هادئة، ويهتز موجها في دِوائر تتسع حتى تصل إلى حافة جدران الصخر فتصطدم به بخفّة، رغوتها متقلبة الزبد. وتحت قدمي

العاريتين، بالضبط عند التقاء الماء بالصخر، طحلب مخضر كثّ الوبرة، مُخضل بالبلولة اللزجة، إذا انحسرت عنه موجة الماء الشفافة، هفهافة القوام. جفَّ الطحلب بسرعة واصفرّ لونه قليلاً ونشف الماء تماماً، يبيضّ جسد الطحلب شيئاً فشيئاً، فإذا هو غضّ وناعم وأملس يلتف بلدونة ملتصقاً بحافة الصخر الدائرية، حتى يرتفع الماء فجأة، ويلطمه برفق، فيبتل من جديد، ويعود أخضر غَضِراً كثيف اللحم.

هل هذا الطحلب هو كتابتي ؟

النور يأتيني من فتحة علوية واسعة منقورة في السقف الحجري مضطربة الحواف، فيغمر الاتساع الداخليّ المحصور بين صخور مشققة عليها طبقات بارزة قليلاً متلوية الخطوط بلون أكثر صفرة كأنها هشة ومتماسكة بالكاد. وينفتح إلى جانبي في الجدار المحبّب، نفق متحدر نصفه العلوي القريب مني جاف، مدوّر، أرضيّته رملية مفروشة بقواقع بيضاء صغيرة وكبيرة، ثم يهوي النفق، وأهوي معه، إلى الماء، وتلتطم الأمواج فيه ويرتفع سطحها المتراوح المرتطم ويضيق حيّز الفراغ فوق الموج حتى يغوص النفق تماماً في الماء الذي يملؤه، ويغمرني حلم لونه أزرق داكن، وأغوص حتى العمق المدفون الذاهب إلى تحت في ظلمة القاع.

أسمع هدير المدفع الضخم على السلسلة في الشاطبي، مرة واحدة، فيدوي الأفق بصدى مليء مكتوم على حافة الشفق المُصمت.

القمر ساطع على موج متراوح متناوب الزَبَد، وشَبَح السفينة بعيد، يسري بلا صوت، كأنما من غير مُحرّك، من غير بحّارة، من غير بوصلة ولا دفة، لكنه كأنما يعرف طريقه.

روح مسكوبة، نازفة، مفتوحة بلا أسوار.

غرابة التماسّ اللصيق الذي لا ينبع عن دخيلة هذه الروح.

عينُ الجسد المظلم تطلّ على أفقٍ خاص بها، وحدها.

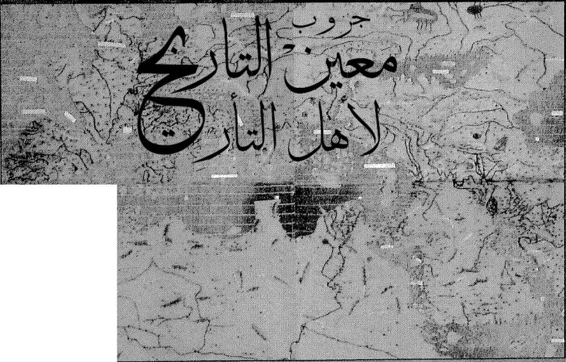
تصورات
البحر الأبيض المتوسط

بإشراف تييري فابر، روبير إلبير، غريغور مايرينغ

عندما نتكلّم على المتوسط، لا نتكلّم على الشيء نفسه إذا نظرنا إليه من إيطاليا أو أسبانيا أو اليونان أو فرنسا أو مصر أو لبنان أو المغرب... ذلك أن تصورات المتوسط بنيت في كلّ مكان من هذه الأمكنة على طبقاتٍ تاريخية وثقافية مختلفة. وكان الغرض من هذا العمل «تصوّرات البحر الأبيض المتوسط» هو استكشاف هذه الأنساب المتنوّعة لفكرة المتوسّط.

هذه النصوص ليست سوى نتاج عمل عشرة باحثين وعشرة كتّاب من ضفتي المتوسط هي المغرب وتونس ومصر ولبنان وتركيا واليونان وإيطاليا وإسبانيا وفرنسا وألمانيا مدة سنتين لاستكشاف متخيّل هذه الجماعات أو تلك، والروابط الذهنية الماثلة، والأصداء التي يوقظها ذكر هذا البحر حيث تلتقي ثلاث قارات، وثلاثة أديان كبرى وتنوّع قلّ مثيله من اللغات والثقافات: المتوسط كبحيرة سلام، أو، على العكس، كأفق لمواجهة محتملة؟ مكان انفتاح أو حدّ انطواء؟ قيم مشتركة أم احتدامٌ للفروق؟ والتساؤل نفسه، من شأنه أن يثير الاهتمام أو الازدراء أو الحذر...

محمد عفيفي وهو مؤرخ، ويدرّس في جامعة القاهرة. وهو باحث زميل في المعهد الفرنسي للاركيولوجيا الشرقية في القاهرة.
إدوار الخرّاط، روائي وقاص وناقد ومترجم؛ من رواياته العديدة نذكر: «رامة والتنين» «ترابها زعفران»؛ و «جميلات الإسكندرية».



ISBN: 9953-422-39-7

THALASSA